

ديسمبر 2018

428

غطاء دروبادي

رواية

تأليف: آناندا ديفي

ترجمة: د. شربل داغر

مراجعة: د. كاميليا صبحي



غطاء دروبادي

رواية

تــألــيــف: آناندا ديڤي

تــرجــمــة: د. شربل داغر

مــراجــعــة: د. كاميليا صبحي

Le Voile de Draupadi
By: Ananda Devi

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2018م

إبداعات عالمية - العدد 428

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

---

www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-619-5

رواية قَدَرِية بهيئة اجتماعية

اقترحتْ عليّ إدارة سلسلة «إبداعات عالمية» ترجمة رواية أخرى للكاتبة الموريسية، باللغة الفرنسية، آناندا ديفي: «غطاء دروبادي»؛ وهو ما لم أتردد في قبوله. فبعد تجربتي الأولى، «الرجال الذين يحادثونني» (الترجمة العربية، 2014)، التي لاقتْ متابعة ملحوظة من النقاد والقراء، وجدتُني منقادا، من حيث لم أطلب، في طقس كتابي مشهود. أتحدث عن طقس، ذلك أن هذه الرواية مسبوقة بطقس، ما يخصّ جماعة في عيشها وتخيلاتها ومآلات عيشها. وفي الطقس ننقاد، وإنْ كنا لا نرغب، على أنّ ما يخفف من قلقنا تقاليد وعادات ومجموعات تتبعنا، كما لو أنها تحملنا في مسيرة، في صعود، وإن تنجلي، في نهايته، المواجهة الصعبة، المؤلمة.

هذه الرواية هي كتاب آناندا الرابع، وقد صدرت في العام 1993، فيما صدرت روايتها المترجمة السابقة في العام 2011. لهذا تعتبر الرواية، التي قمت بترجمتها في هذا الكتاب، هي السابقة بأكثر من معنى: سابقة زمنيا، إذ تُعد الثانية في محاولات آناندا السردية الأولى، وهي سابقة خصوصا لجهة تعبيرها عن عالم ديفي «الهندي»؛ وسابقة أيضا، بالمعنى السردي المحض، إذ تنتظم الرواية في بناء يمتاز بقدر كبير من الكلاسيكية (فيما يختلف الأمر في روايات تالية لها).

تحكي الرواية قصة عائلة موريسية، من أب (ديف)، وأم (أنجالي)، وطفلهما (وِين)، الذي يصيبه مرض التهاب السحايا، بعد أكثر من سنتين على ميلاده. تنطلق الرواية بعد انكشاف مرضه، وتنتهي في ما يمكن أن يكون خلاص الطفل من مرضه، أي خلال شهور معدودة. لكن الرواية تَكشف ما هو سياقي، في حياة الوالدين، في ماضيهما العاطفي القريب، وفي عائلتَيهما. وهو تحديد سياقي يطاول أكثر من ذلك، إذ يتناول خصوصا «إخوَة المركب»، أي مجموعة من الهنود الذين حلّوا في جزيرة موريس، واستوطنوا فيها، وحملوا معهم إليها معتقدات وقيما وعلاقات وغيرها. وهو سياقي من جهة أخرى، إذ قد يحيل إلى أصول حياة عائلة ديفي نفسها، إذ هي تنتسب إلى هذا التاريخ، وتتبنى الروائية، في عملها هذا، مثل هذه الهوية، لا بل تكشف عنها، وتموضعها في التاريخ المحلي لجزيرة موريس.

هكذا ينبني السرد في مسار تحدده وقائع معدودة، في حياة الراوية، أنجالي، وما يحدث لها بين بيتها والعيادة وبيت أهلها، وزيارات محدودة تقوم بها، ما يجعل السياقية عالية ومطلوبة، تتمثل كذلك في استيحاء أساطير هندية قديمة، أو في استعراض الهيئة الجغرافية والمناخية والنباتية للجزيرة.

نتحدث عن سياق هندي - موريسي، فيما يمكن الحديث عن سياق إغريقي قديم، إن جاز القول، إذ إن الرواية تنطلق، كما في مأساة إغريقية، منبّئة بما ستؤول إليها الوقائع، أي إلى مأساة ماحقة لقدر الأشخاص، الذين نلقاهم ينصاعون في نهاية المطاف، على الرغم من مقاومات «فردية» هنا أو هناك.

هذه القدرية لها معنى آخر في الرواية، معنى مستقى من التقاليد الهندوسية، مما يسمى «الكرما»: البشر يعيشون في دورة، فيتقمصون

ويتناسخون في كائنات غيرهم، وفي ظروف زمنية متغيرة. وهي قدرية، أو «كرما» بالأحرى، تتكفل بها جماعات فاعلة في المجتمع، وتنظمها طقوس متناقَلة ومجرَّبة، ويحرسها كهنة مندوبون لمتابعة عمل الدورة.

هذه العدة السياقية الواسعة والقوية تبقى محكومة وموجهة صوب سؤال أساس: هل ستُقدم أنجالي -فيما ينكشف تدهور صحة ابنها، وعدم جدوى المعالجات الطبية - على المشي فوق النار، فوق «غطاء دروبادي»، على التضحية، وفق التقاليد، من أجل «شراء» مصير جديد لوليدها الوحيد؟

هكذا ينتقل القارئ فوق دروب عديدة، فيما يبقى مشدودا إلى درب آخر، وحيد: درب النار، على أنه الدرب الحارق الذي نجد فيه الأم -على الرغم من شعورها بفردانيتها المعلنة والأكيدة - تتقدم وتتردد، بين الرفض والانصياع، بين الزوج (وخلْفَه عائلته، والجماعة، والكاهن الهندوسي)، والزوجة، في كيانها المستقل وشعورها بـ «الواجب».

سينتقل القارئ العربي، في هذه الرواية، إلى مناخات وأوضاع بعيدة عنه، وإن كانت متماسة معه، في البلاد الشرقية التي يتقاطع تاريخها وجماعاتها مع أوضاع وسياقات إسلامية (قديمة) وعربية (حالية). إلا أن القارئ سيتحقق من أنه ليس بعيدا، بل هو قريب من بعض هذه المناخات، الاجتماعية خصوصا، ولا سيما في الحديث عن متانة البنى التقليدية في تسيير مصائر الأفراد والجماعات أحيانا.

هذه الترجمة، بقدر ما كانت منشطة ومحفزة، كانت صعبة. واجهتني فيها مصاعب أخرى، عما عرفته في ترجمة روايتها الأخرى. كان علي، في هذه الترجمة، أن أعود إلى فهم الكثير من المعطيات

والمعـاني في الثقافـة الهندوسـية، أو في مواصفـات جزيـرة موريـس الجغرافيـة والنباتيـة. إلا أن المصاعـب الأشـد تمثلـت في لغـة ديفـي، حيـث هـي، ملموسـة ومحسوسـة للغايـة (كـما تطلبهـا روايـة ذات تطلبـات كلاسيكية في الغالـب)، وهـي شـعرية في بنـاء العديـد مـن الجمـل. فـما كان صعبـا تمثـل في فهـم المعـاني الصحيحـة والمطلوبـة، لكنـه تمثـل خصوصا في اسـتبيان أيِّ الـدلالات التـي تطلبهـا الروائيـة في هـذا اللفـظ أو ذاك، حيـث تجنـح الجملـة جنوحـات شـعرية أكيـدة، بـين تخيليـة وإحساسـية. وهـو مـا لم يكـن بالغريـب، إن عرفنـا أن بدايـات ديفـي الأدبيـة، منـذ الخامسـة عـشرة مـن عمرهـا، انطلقـت بأجنحـة الشـعر.

يبقـى أن نعـرف أن الروائيـة مـن مواليـد العـام 1957، ويعـود أسـلافها - كـما في الروايـة - إلى الهنـد، وجـرى اسـتقدامهم مـن قبـل الإنكليـز للعمـل في جزيـرة موريـس، حيـث ولـدت، وعايشـت بلـوغ الجزيـرة اسـتقلالها، وهـي في الحاديـة عـشرة مـن عمرهـا. شرعـت في الكتابـة منـذ سـن مبكـرة، بالفرنسـية، منفتحـة ومسـتمدة مـن مصـادر مختلفـة، مثـل: اللغـة الخليطـة المعروفـة بـ «الكريـول»، والموسـيقى الهنديـة، ولغة «التيلوكـو» المعروفـة في جنـوب الهنـد (والتـي أخذتهـا عـن أمهـا). انتقلت إلى لنـدن في الدراسـات العاليـة، حيـث حصلـت عـلى شـهادة الدكتـوراه في علـم الإنسـان (أنثروبولوجيـا)، كـما تزوجـت فيهـا مـن والـد ابنَيهـا، المتحـدر بـدوره مـن الجزيـرة نفسـها، والـذي يعمـل في إخـراج الأفـلام الوثائقيـة، في «منظمـة الصحـة العالميـة».

إلى جانـب هـذه الحيـاة الدراسـية والعائليـة، انصرفـت آنانـدا إلى القـراءة الأدبيـة، وكان لـ «ألـف ليلـة وليلـة» أثرهـا الكبـير في نشـأتها الأدبيـة، عـلى مـا قالـت في أكـثر مـن حديـث صحفـي وإذاعـي. فقـد قـرأت، وهـي في العـاشرة مـن عمرهـا، هـذا الأثـر العـربي الفريـد، وتبينـت

فيـه أن في إمـكان المـرأة أن «تعيـش مـن أجـل أن تكتـب»، مثـل شـهرزاد، التـي أنقـذت حياتهـا بالقـص: «امتلكـتُ حريـة في القـول لم تكـن لأمـي. حـين أكتـب، أشـعر بـأن أجيـالا وأجيـالا مـن النسـاء تقـرأ مـا أكتبـه، إذ أكتبـه، واقفـة وراء كتفـي»، حسـب قولهـا.

نـشرت ديفـي عملهـا الأدبي الأول، وهـي في التاسـعة عـشرة مـن عمرهـا، ثـم نـشرت الأعـمال التاليـة: «وزن الكائنـات» (1987)، و«شـارع مخـزن البـارود» (1988)، و«غطـاء دروبـادي» (1993)، و«نهايـة الأحجـار والأعـمار» (1993)، و«الشـجرة - السـوط» (1996)، و«أنـا، الممنوعـة» (2000)، و«طُـرق الرغبـة المديـدة» (2001)، و«باغـلي» (2001)، و«الرغبة المديـدة» (2003)، و«حيـاة حوزفِـن المجنـون» (2003)، و«تانغـو هنـدي» (2007)، و«السـاري الأخـضر» (2009)، و«الرجـال الذيـن يحادثوننـي» (2011).. وغيرهـا.

1

وجهُ طفلٍ، جامدٌ، مائلٌ إلى الزرقة المعتمة، تتداعى فوق صفحته أشعة النهار المتهالكة. وجهُ طفلٍ، من دون ابتسامة، ذلك أننا لا نبتسم حين تكون الحياة على تراجع، وحين يضعف القلب بضربات مرعبة، فلا نسمع غير موسيقى الساعات. وجهُ طفلٍ يجمع شديدَ الأمانة، على الرغم من صمته، من شحوب تقاطيعه، وهشاشة فمه المرتجف، وشفافية يدٍ موضوعة على الشراشف.

إنه ينام، إلا أنه ليس نومَ الراحة، ولا لحظةَ السكينة التي تتجدد فيها قوى الجسم. إنه نوم قد نخاله الغيبوبة نفسها. فالنعومة البادية ليست سوى قناعٍ يغطي عصف الليالي، المديدة، المنقضية في العناية بصحة الطفل المتدهورة، أو ليست سوى فاصل الأيام التي تتساقط قبل أن نعيشها.

ارتجافة ضعيفة، لا تكاد ترى، مثل نبض ثوان، لكن عين الوالدة اليقظة تتنبه إليها بشكل أكيد. أقتربُ منه، وجهي على بعد مليمترات قليلة من وجهه. أتلقى النَفَس الذي يزفره رغما عنه من شفتيه، مصحوبا بعطر المرارة الذي يتصاعد مع ارتفاع حرارة الجسم. أتقدمُ صوبه من أجل التقاط شيء من الحياة الأكيدة في تموجات الجسم الخافية. أرغب في ذلك، في أن أجمعه، في أن أشدَّه صوبي، في أن يكون أبعد، أبعد أكثر.

أبعد، حيث يكون محميّا بقوة، من دون الأدوية، من دون الحبوب والإبر التي أفرغتْ جسمه، ودمَّرت لحمَه.

هناك صمت ثقيل محيط بنا يجعل أي شيء يتبدد فيه، ويختفي. عالمٌ شفاف يغطينا، وتتحرك فيه أمواج متراقصة وصامتة. إلا أنها ليست سوى إيقاعات القلب، ومسارِ الدم في دوامة العروق والشرايين، وتتابعٍ غامضٍ من تجليات الوجود التي لا تتعالق فيما بينها. أتنصَّتُ بانتباه إلى هذا الصمت.. يُخفي صوتا غير إنساني، لكنه يحادثني من دون أن أفهمه.

- تعالي، لندعْه في الوقت الراهن، يقول ديف. إنه يحتاج إلى هواء، إلى فضاء. وأنتِ، بدورك، تحتاجين إلى الراحة.

يسعى إلى إيقاعي في فخ العناية بي، لكنني لست مخدوعة. إنه لا يعدو أن يكون ظلا، متربصا بين الظلال. مثل هذا الحضور يزعجني في تأملاتي. أمنعُ حركةَ تضايقٍ من الظهور؛ وأُمسكُ عن تلفظ الكلمات ذات الطعم الرمادي التي تتقافز فوق شفاهي، وعن الكلامِ غير القابل للصفح الذي ليس لنا أن نتفوَّه به.

- امضِ، لا تتدخلْ فيما بيننا. إنه ابني أنا؛ أنا من حَمَلَ به، وغذّاه، وجعله يكبر. ما منحتَه إياه لا يتعدى، في غالبه، أن يكون ذلك الحضور الشاحب للوالد الذي يتعلق به الطفل في لاوعيه، من دون أن ينتبه فعلا إلى كونه لا يحتاج حقا إلا لأمه؛ إذ يحتاج إلى دفئها الخصوصي ورائحتها الحميمة والأليفة، إلى صوتها، إلى حياتها، إلى نبضها.

يجب ألا أستسلم إلى مشاعر التملك هذه، ولا إلى هذا الشطط المعروف لدى الأمهات. للوالد كفاحُه وأوجاعُه، له انبثاقات وعيٍ تشدُّه إلى الطفل، مثلها مثل مشاعر السعادة.

كيف لي أن أنسى أنه كان الأول، بعدي، الذي أخذه بين ذراعيه، وأن أنسى تعابير الحب الشديد فوق وجهه، عندما كان له أن يتفحص وجه

هذا الطفل الرقيق، ذي الأجنحة الصغيرة والدقيقة؟

أن أنسى؟ لا، لا أنسى أي شيء. كلُّ شيء اجتمعَ هنا، في جهة ما، في لبِّ صورِ الحنين التي لا نفصح عنها، تراكمَ في الذكريات التي ستصبح، يوما ما، المصدرَ الوحيد للحياة، لَمّا تنضب المصادر الأخرى. منذ أن بدأ وِين بالتألم، وانتشرتْ في كلِّ شكوى من شكاوى وجعِه أصداؤها القاتلة، عاد إليَّ عهد الغريزة المبسط والبدائي.

سرُّ الحياة كله يكمن في هذا الخيط الممتد بيني وبينه. أما الآخرون فليسوا سوى مندسِّين بيننا، يَسعون إلى قطع هذه الصلة التي من دونها نضيع، هو وأنا. ديف، هو بدوره، يبدو في هيئة أجنبي، في هذا الفضاء، مع هذا القلق البالغ، الذي تُهددنا فيه مشاعر الشك.

وِين يشعر بوجودي، أنا متأكدة من ذلك، فهو يعرفني. على الرغم من أنه في شبه غيبوبة، استدار بوجهه صوب وجهي، ببطء شديد، حتى كدنا نتلامس شفة إزاء شفة، وأنفاس متقاطعة بيننا. يُخلي نفسه بين يدي، يُسلِّمني حياته مثل نواة صغيرة تقع في راحة يدي.

أركِّز: تجميع طاقتي الحية كلها، خوفي كله، كل اضطرابي الساكن في حواسي. أسعى إلى تحويل هذه كلها إلى سيل من القوة فوق الجسر الواقع بيننا، إلى ارتجافة الصلة بيننا التي تدوم على مستوى الوجه.

جسده استرخى مثل جسدي. يستغرق في نوم أكثر صحة، أكثر إنسانية مما سبق. لونٌ خفيف استفاق فوق وجنته. أبتعدُ عنه على مضض. صرخةُ تمردٍ، ضائعة، تنفجر من حنجرتي. بدا لي أنها لن تنقطع أبدا. خيطُ عصيانٍ لن يقوى على فهمه أحد لأنه أكثر هشاشة من الدموع أو الابتسامة. أنا لا أفهم حدوثه بدوري. من أين تأتتْ لي شجاعة المحارب هذه؟

ما كان لي أن أدعه يولد، أن أعرِّضه من دون حمايةٍ لأنواع المخاطر المبهمة في عالم الأحياء هذا. حاليّا، يعمل الأطباء على إزاحتي مثل شيء

لا حاجة له، مثل بقيةٍ من أمومة لم تتكفل تماما بمهمتها. الولد يعاتبني لتساقط دموعي التلقائي، من الدمع المتفلت والمؤلم، ما يُشكِّل خلاصا واحتباسا إضافيّا. من دون أن يفهم أحد هذه اللحمة الشديدة التي تضمنا بعدُ، ولا هذه المصادر السرية التي تنبثق من هذه الأمانة، ولا كيف أن هذا الطفل لا يزال أنا، وكم هو أنا..

يدٌ تمسكُ بذراعي، وتشدُّني إلى خارج الغرفة. أشعر بضياعي، ما إن أكُنْ خارجها. لا يعيش شيء في البيت، إلا هنا، حيث ينام ابني. الغرف الأخرى مجهولة بالنسبة إلي، باردة، وقد أصابَها ما يشبه التلف، كما لو أن الضجر لوَّنَها بغباره. لعل الغرف قد تحجَّرت من جراءِ لعنةٍ من دون أن أسعى إلى معرفة سببها؛ بل في إمكان الغرف أن تنهدم تحت ركام من الجذور والأشواك، من دون أن يعنيني الأمر. بات الوجود يقتصر على بعض الأسمال، المختلطة بأوجاع غير مناسبة. وجميع الأشياء التي بدت أساسية للغاية في مسرى الحياة تداعت كليّا.

نسيتُ كيف وصلتُ إلى هذا الدرك. في هذا المكان المعتم، الذي تندلع فيه عطور منسية، تتدلى عفونة بطيئة وباردة مثل ضفائر ليلية فوق السياج والجدران، ووجوهٌ معلَّقة هنا وهناك، صامتة، شاحبة، مفرَغة من أي معنى، من أي طموح. إنها أنا، إنها دِيف، وغيرنا ممن يمتنعون عن الاختفاء، ولكنهم يبقون من دون مواد، أشبه بمكائد أرفض مواجهتها.

كانت هنا وهناك خيطان من فرح، وأصداءُ حلم. عذاب الأيام الأخيرة يستديم عندي مثل أبد.

خرجتُ من ارتعابي، للمرة الأولى منذ عدة أيام، لكي أنظر، من حولي، إلى شظايا الحياة التي تحيط بي. أذكر أن يدا وَضعت بين شفاهي ملاعق من الأرز و«الكاري»، التي مضغتُها وبلعتُها بتؤدة؛ كانت يدا ناعمة ولكنها أكيدة، لا تسمح بأي اعتراض كان. دِيف، أناي الأخرى التي لم

أمتلكها إلا في ماض غير أكيد، أناي التي لم أمتلكها أبدا. أدير وجهي صوبه، بنوع من اللامبالاة:

- هل تعشيتَ؟

- الخادمة أعدَّتْ وجبات الأكل. أكلتُ منها بعض الشيء، ألا تذكرين؟

- بلى، أعتقد ذلك.

ينظر إليَّ ضائعا، جاهدا في إقامة معبر بيننا، لكنني لن أعبره. نظرة معتمة من ديف، تلتحق بي فوق هاوية وِين. يتوجب عليَّ القيام بمجهود. إنه، هنا، في صورة دائمة؛ إنه، هنا، جسدٌ على حافة الهاوية. استداراتُ وجهِه ذي الزوايا تندس في الألوان الرمادية على الجدران. لم نعد قادرين على التعرف إلى حركاتنا الأليفة، ولا إلى قلوبنا الذبيحة فوق أشواك سوءِ التفاهم، ولا إلى حياتنا كزوجَين. لعلها، بكل بساطة، اللحظة التي لنا أن نواجه بعضنا فيها، وأن نعي بأن لنا قناعَين فوق وجهَينا، وأن لنا مسخا من الحب صنعناه بحماستنا الفاضلة.

تعرَّف إليَّ مولودة في سبتمبر، ولها ابتسامة سهلة، وشجون متوقدة، أقرب إلى الشتاء، وأقرب إلى الربيع. أكاد أن أتعرف إليها، لم تكن أنا. في اليوم الأول الذي وقعَ نظرُها على ديف، تلفظتْ من تلقاء نفسها، وفي نفسها، هذه الكلمات: ها هو الرجل الذي يتوجب علي أن أحبه. وهو ما أقدمتْ عليه، في واقع الأمر، كما لو أنها غير معنية بما تفعله، ما دلَّ على برودة ورعب لو أتيح لها حينها أن ترى ما باتت قادرة، اليوم، على رؤيته، مع تقادم السنوات. كان يتوجب عليها بناء نجاحِ حياتها، وقامت، لهذا الغرض، بتوجيه حياتها كما الطفيل فق اندفاعات ديف. زهوٌّ عابرٌ سحرَها، كما في الدين، إلى حين ظهور وِين.

هذا الماضي الخادع أراه، اليوم، أقرب إلى خيانة لنفسي. فأنا ما وُلدتُ إلا مع ولادة وِين. كلُّ شيء مالَ، عندها، أمام ما هو بديهي: هذا الحدس

الرهيب بأن جميع القيم، جميع الحقائق، وجميع القناعات تُختصر كلها بحضور ابن وبيدين وقلبٍ، مع أمومة معطاءة. ما بقيَ دُمِّرَ في منتهى الهزَّة الداخلية التي تُحدثها الولادة. استعادَ ديف وجهه كرجل اعتيادي؛ لم يعد الرمز الشمسي الذي تخيلت أنني تزوجتُه. هكذا هي الأمور. علينا أن نَقْبل بأن للمسار أكثر من انعطافة. وعلينا أن نتمسك بالأساسي بمثابرة وشراسة، وأن نكتسب سنتمترا سنتمترا هذه الأرض الهاربة التي تنتهي في فراغ يحوم فوقه المجهول..

المجهول كان مصيرَ وِين الغريب. المجهول كان في رؤيته مصابا بالدهشة إذ يتعرض لنزلات صدرية متتابعة ومفاجئة. تقاربْنا لوقت قصير، ديف وأنا، بفضل همِّنا المشترك. كان وِين يبكي، وكان كلانا إلى جانبه، نتبادل الدور في هدهدة سريره، في تهدئته، في طمأنته. سهرنا، طوال ليالٍ بأكملها، نحن الاثنان، إلى جانبه، جنبا إلى جنب. كان ينام أحيانا لبضع دقائق، وكنا ننام سريعا، نوما مضطربا تنفجر فيه خضات سريعة، وتتساقط فيه نتف صغيرة من الرعب. كان الخوف يتزايد، عامرا بأغصانه وأجماته، ما يهددنا بانقطاع النَّفس، وما يُخفي عنا سماءنا، ونجومنا. عندها ساورَنا الاعتقاد بأنّ تجددا ما ممكنُ الحدوث، على ما قلنا لأنفسنا، وبأن وِين سينجو من مرضه، وأننا، حينها، أنت وأنا..

هذا ما جرى بعد ذلك، إثر انتكاسته الصحية الأولى والشديدة، لمّا أطلق ديف اتهاماته. تحوَّلَ، بعنفه غير المسبوق والهائل، إلى قاضٍ عدلي: كنتُ المسؤولة عن حياة طفلنا. كنتُ المذنبة في مرضه.

كرّرَ كلامه هذا للطبيب، وتنبهتُ إلى كونه يُفرغ عليَّ حمولةَ مرضِ الطفل. هذا ما كان يتيح له تخفيف الألم، والتخفف من عبء العار غير المحتمل منه. بدا لي الأمر كما لو أنني أسقطُ من غيمة.

هكذا تبدلتْ سماء زواجنا عند حلول منتصف الليل. لكنني فهمتُ

أيضا، عندها، أن هذا كله محدود القيمة.

إثر ذلك، وبعده، لم يعد هناك أي وقت لمجرد التفكير في ما حصل بيننا. لم يبقَ غير وِين ونزلاته الصدرية، التي كانت تَفتك بالقوى الحية في جسده الضئيل. لم يبقَ غير الغثيان، وأوجاع الرأس والحرارة المرتفعة؛ وما لبث الطبيب، بعد عدة أيام، أن تلفظ بالكلمة الرهيبة: إنه التهاب السحايا. انقلبَ العالم معها، وتشوَّه كل شيء حولي. صارت الوجوه مرتخية وبشعة. بدت الأشياء غريبة في ناظري، وراحت الأرض تهتز. عندها ما عدتُ أعرف أي شيء عن الرجل الذي يطلب تحميلي هذا كله. لم يبقَ بين يديَّ سوى حياة طفلي، ورمادِ بيتٍ اجتاحتْه العزلة.

- أنجالي، قالَها لي بنعومة. عليكِ أن تستدركي نفسك. وِين بأيدٍ أمينة. سيعتني به الطبيب برادان. لنا ألا نتصرف كما لو أننا هُزمنا منذ البداية.. لنا أن نثق به.

- بالطبع. كلنا جديرون بالثقة. إلا أنا.

كان في كلامي خشونة وقسوة مقصودة.

- ما قصدتُ هذا.

كانت هناك خيوط عنكبوتية تتدلى من السقف. فوضى غريبة أينما كان، وأحاسيس من الغياب، والانعزال، ومن فقدان الصلة بالواقع. لم يعد العالم الخارجي قائما. نحن فقط، مع أثقال خوفنا، وانحرافِنا عما نحن عليه في قرارة أنفسنا. ما كان يهددني، ويسحبني إلى أسفل، كان الطفل. أهزُّ الرأس راغبة في قطع هذا الحوار الفارغ، وإيقافِ هذه المباراة الخاسرة سلفا. كان يسكنني ذلك الكائن الصغير النائم في سريره، هناك، شفافا مثل كأس رقيق أفرغتُ فيه عصيري الإنساني. ولقد كان هو نجمة القلب في هذا الكون، الذي أدور حوله في الحاضر. أهز الرأس من جديد متعبة ومصمِّمة.

- يجب أن أعود إليه.

2

تحولتِ الليلة ببطء أكثر من الظلال. أخلتْ ساحتَها لبياضِ أقرب إلى نور النجوم منه إلى نور الشمس، كأنه يتساقط من حواف السماء. لعلها هفوة جنائزية من شهر آب-أغسطس، إذ تزعم أن هذا بنهار، فيما هو امتدادُ حلمٍ من اللامبالاة والفراغ في روحِ أحدٍ ضائع.

نمتُ بوضعية البهيمة في أسفل السرير. ساعداي مجمَّدان لساعات تحت جسمي، وقد أصابهما الخدر والألم. ثنية غطاءٍ انطبعتْ على خدي مثل ندبة. هذا النوم الفظ أضاعني. انقطعَ الإيقاع السريع والمتهاوي، الذي نجحتُ في فرضه على ذهني، بعد أن انتظمَ هذا الإيقاع وفق مواعيد الساعات الفاصلة بين دواء وآخر، وتبعا للأسماء المعقدة التي للأدوية ولألوان عُلبِها التي يحسبون أنها ألوانٌ مرحة؛ إيقاع له ساعة من أصفر، وأخرى من أبيض، وغيرها من أحمر، هذا الإيقاع انقطعَ بمجرد الهروب المقتضب في النوم. أمضيتُ وقتا قبل أن أستعيد خطاي في عالمٍ من القطن المندوف، الذي له مَعْلَمان فقط، هما وِين وسيرة المرض البطيئة التي تتملص من رقابتنا.

ينام في عرض السرير، رأسُه يتمايل، ساعداه ملويان، وساقاه كذلك. سحنتُه تراوحتْ بين صفرة شاحبة وحمرة بنفسجية. بقعٌ حمراء ظهرتْ فوق معدته، كما لو أنها حروق في اللحم الحي. توقفَ عن الغثيان، لكنه

لا يقبل بشكل غريزي غذاء. أبحث عن ضحكته، وعن تعابير الطفولة في وجهه. أعتقد دائما بأنني ما زلت أراها، وأسمعها؛ هكذا أتبعه من دون تردد. لكن طريقه مقفر؛ نزلة بسيطة لن تنقطع قبل نهاياتها. يجتاحني صخب الموت، ودخانه الخانق والمزعج، من دون أن أعلم الجهة التي تأتيني منها شجاعة الأمل.

للغرفة رائحة الحرارة المرتفعة؛ تكدستْ فيها، صَغُرت حول وِين. تنفجر فوق الجدران، بفرحٍ مدهش، كتاب شخصيات وولت ديزني المفعمة بالحركة. الستائر التي تحمل رسمة بييرو القمرية؛ القنديل الكهربائي قرب السرير، الذي له هيئة القزم المعتمِر قبعة ذات جلاجل، يوزع في المساء أنوارا مائلة إلى الزرقة؛ الألعاب المكدَّسة كيفما اتفق في الصناديق وفي الزوايا.. هذه كلها تبدو متناقضة مع حضور المرض المتسلل إلى هذه الغرفة. قبل أسابيع قليلة، عقد وِين حوارات طويلة وضاجّة مع رفاق متعته الطفولية، من أمثال: بامبي، دينغو، والقزم جوايو[1]، قبل أن ينام. كانت نظرته تشيع في هذه الدمى حياة، وكان يندس حالما بعيش مغامراتٍ معها، وكان، بالمقابل، يُحيي عزلته الأكيدة لكونه ابنا وحيدا.

هذه الدمى، الآن، لا تعيش قط، جامدة في مرحها الثقيل. حُكم عليها أن تبقى على هذه الحال، في وضعياتها اللاهية، وتعبيرات وجوهها، وحبورها التالف. رسوم «بييرو» فوق الستائر اكتست نظرة مأساوية مقابلَ القمر في هلاله. أما القزم فبقي من دون إنارة، ليلا ونهارا، وجلاجلُه بقيت جامدة. لا شيء يَعِد بأي مستقبلٍ كان لهذه الأشياء المنهَكة والعمياء. أمواج وأمواج من روائح كريهة تخترق حرم الغرفة.

أباشر حركة غريزية من الرجوع إلى الوراء لتحاشي هذه القوة الكريهة. أمدُّ يدي طالبة ملامسة الطفل، إلا أنني أخاف من تداعي جسمه عند

(1) دمى معروفة، وشهيرة بأسمائها، للأطفال (المترجم).

أول احتكاك، كما لو أنه شيء قديم ومحنَّط. يجب أن أقوم بحركة ما، أن أطلق نداء صوب ديف، المحتجِب في جهة ما في أرجاء البيت.

خوف، صراخ مخنوق، لئلا نزعج النوم المقدس، الأبدي، بين ذراعَي الأرض. أتراها تَفِد إلينا باحثة عن تقدمتها؟ سنقابلها بالرفض، بعصيانٍ متجذر في نواة قاسية وناشفة في البطن، وبكراهيةِ كل شيء ما عدا وِين، ونبضاتِ قلبه، وتنفسِه.

يشبه البيتُ المتاهةَ أكثر فأكثر. لا يقوى أحد على فكِّ عُقَد الهمِّ، وأعشاشِ حشرات القلب والموت هذه، التي اجتاحت الزوايا كلها، وشَرَعتْ في عملها التدميري. غرفة نومي ليست بأليفة بين جميع الغرف، أما ديف، الذي يستلقي فيها لقسط من النوم، فجسدٌ حي، لكنه لا ينتمي إلى عالمي. ألقي نظري عليه، ساعية في رأسي إلى فهم أسباب هروبه المفاجئ من جميع الاعتقادات، ومن القيم المكتسَبة، كما لو أن سدًّ مياه ارتفعَ بقوةٍ في قلب الليل، وجعلَني ممددة وعارية، مثل سرير قناة جافة من مياهها، ومسكونة بالأسماك الميتة.

- ديف، ناديتُه من عتبة الباب، خشية أن أزعج السلام الهش الذي التجأ إليه.

لم أتكلم بصوت عال، لكن ارتجافة كبيرة أصابتْه، وجعلته ينتصب، فيما كانت عيناه منفرجتَين من جراء كابوس قد أوقفتُه ربما، أو أنه اجتاحَه عند اليقظة فقط. كان يأتي من بعيد، بصعوبة. كان يتعثر في مشيته مثل سكير، لكن نظراته كانت مثل التي لطفل صغير، بائس، ضائع، لأنه لا يتحكم بمسار الأشياء.

- أجل.. ما في الأمر؟.. أهو وِين؟

- أعتقد أن علينا استدعاء طبيب. أخشى من مجرد ملامسته. أخاف من أن أسبب له وجعا.

يتبعني إلى غرفة وين. ينظر إلى الطفل بعينَيه المرعوبتَين، المضطربتَين بعدُ بذلك الكابوس الذي شغلَهما.

هناك ارتجافة صغيرة على طرف الشفتَين، فوق ذقنه المعتم بسبب شَعر لحيته الذي لم يحلقه منذ يومَين.

- لقد تبدلَ كثيرا. إنه ليس وِين الذي عرفناه، قلتُ بصوت هامس. إنه أحدٌ آخر.. يبدو كما لو أن الدم سيسيل من شفتَيه للتو.

- المضادات الحيوية لم تنفعه، على ما يبدو. الأدوية لا تفعل فعلَها ضد ارتفاع الحرارة. إنه يحترق. انظرْ إليه. إنه يحترق.

- هل فحصتِ حرارته؟

- لا، ليس بعد.

- ما تنتظرين لتفعلي؟ أن ترتفع الحرارة أكثر؟ قال بصوت خفيض ومركَّز، واجدا في الغضب مهربا له.

- ما سيكون نفعُ ذلك؟

- أنتِ، بأي حال، تبقين على حالك. لو لم تتركي وِين..

هذه الطريق سبق أن سلكناها معا. هذا المسار أعرفُه عن ظهر قلب. وحدها المشاحنات، المُستعادة ألف مرة، تتوصل إلى إدارة انتباهنا عن المرض، وإلى تبديد رعبه. إلا أنني أرفض ولوج هذه المنافذ.

- لا تُجهد نفسك، قُضي الأمر. أنتَ حر في إيجاد المهارب، إن كان في الأمر ما يساعدك. ما يعنيني، هو وِين.

ينظر إليّ بعينَيه المحتجبتَين، المجنونتَين تقريبا. غريبٌ مشبَع بضغينة متهورة، ويتوجه بها صوبي في هذه اللحظة. لا يقوم بذلك عمدا. إنه مجروح في كبرياء الرجل الذي فيه. إنه ضعيف، مثل وِين، بين الأطياف.

استيقظَ وِين في هذه اللحظة، طالعا من مناخات الدوار الذي يتعثر فيه منذ يوم أمس، ينظر حواليه، وهو خائف. آخذُه بين يديَّ،

رافعة رأسه، لكي يقوى على التنفس بصورة أفضل. يدٌ خفيفة تنشب براثنها في رقبتي. حرارتُه تحرق معدتي. حرارة في دفعاتٍ من كل جسمه، تجعله يرتجف، من دون ثبات، بين يدي.

- شعر بالوجع.. يا ماما؟

يشير إلى رأسه. أكاد أختنق، أضغطُ على جبهته، على رقبته الضيقة حيث تبدو الشرايين منقبضة، أو متشابكة، ما يجعله يرتاح بعض الشيء، على ما يبدو. لكنّ وجعَ الرأس يعود من جديد، فيتلوى في سريره، ويُخفي رأسه في المخدة، كما لو أنه يريد خنقَ نفسه، والألم معه. تجتاحه نوبات من الغثيان، فلا يخرج منها سوى سائل نقي، ما دام أنه لم يأكل شيئا منذ يومَين. لكنه يهدأ شيئا فشيئا، ويسمح لي بهدهدته كما لو كان بعدُ رضيعا. أرفعُه إلى ذراعي، أمشي في الغرفة محاولة الغناء، بصوت أجش ومكسور. عليَّ إخراجُه من قبضة المرض، فأنا لن أسمح له بإلحاق الهزيمة بي. يستكين من جديد، ويوافقني في إيقاعي، وتنفُّسي البطيء. عيناه متفتحتان، لا تنظران إلى شيء بعينه. لا يسعى حتى إلى الفهم. يَقبل، ببراءة، ما سينتهي إليه الأمر. أنا التي تصكُّ على أسنانها، كاظمة غضبي.. سيكون ذلك في مقدوري. كل شيء ممكن بفضل غضب الأم الهائل.

ديف محقٌّ. وِين ليس مثل غيره من الأطفال. توصلتُ بصعوبة إلى إسكات الصرخات التي اندلعتْ لحظة ميلاده. نجحتُ في إتلاف الصور الهائجة، والاعتداءات المتكررة على حبِّ الأم الذي تخصُّ به وليدها، الاعتداءات التي صاحبت أيامه الأولى في الحياة. كان عليَّ أن أراه في مِحْضنته، وقد وُلد قبل ميعاده، وفوق عينيه عصابة، ما جعلَه أقرب إلى شيء ميت. قبضتاه منقبضتان، جسدُه متجمد، في عزلة تامة، في تعدٍّ على حقوق الحنان. أمضيتُ ساعات وساعات جالسة مقابله، أحدق فيه، أغذيه بحليبي، مبدلة حفاضاته، مختلسة ألف مداعبة ومداعبة مما

لم يكن مسموحا لي به. جرى الكلام عن أنه اليَرَقان، ما يصيب الأطفال الرُّضَّع عموما، وتَظهر ملامحه إثر ولاداتهم. لكن الممرضات يصمتن ما إن أظهر عليهن؛ كانت تبلغني تمتمات خفيضة ومتلاحقة، لا تلبث أن تتحول، مع مروري، إلى تعابير من الشفقة فوق وجوههن. كنَّ يتحدثن عن أمور اعتيادية، لكنني كنت أقرأ في نظراتهن الرعبَ، والشفقة، والخطر. ثم أتى الطبيب برادان بعد أربع وعشرين ساعة على ولادته، ليحدثني عن هذا الخطر، وهو متأت من عامل البندر[2].

لم أقتنع بأي من التفسيرات المتصلة بعامل الدم المختلف بين ديف وبيني، عدا أنني فقدتُ جنينا قبل ذلك. ما هو أكيد في ذهني: لم نكن على توافق، طفلي وأنا. كما لو أن جسمي يرفضه، بطريقة غريبة، غير مقبولة. لم يبقَ أمامنا سوى حل وحيد، وهو نقلُ الدم إليه.

محوتُ من ذاكرتي الساعةَ التي اقتضتْها العملية. لا أذكر شيئا عن حالتي الذهنية، ولا عن حالة ديف، ولا عن حركات الأطباء، ولا عن وجه طفلي في تلك الساعة. أعتقد أنني كنت غائبة عن الحياة، لكن الطبيب برادان أعاده إلى الحياة. وضعَه، مشرقا، بين ذراعيَّ، كما لو أنه يعود إلى الحياة للمرة الثانية. الوجه الصغير تجمَّد في ما يشبه الابتسامة. أظن أنني أمسكت بيد الطبيب، ورفعتُها إلى شفاهي. أبعدَ يدي، متحرجا من قيامي بهذه الحركة.

- أنتِ قوّتُه وصحتُه منذ الآن، قال لي. أنت مسؤولة عنه. إن تخليتِ عن الكفاح منذ الآن، إن لجأتِ إلى التوترات العصبية أو الهستيريا، فإن أحدا لن يقوى على التعويض عن قوتك. لا تبخلي عليه بحقه البسيط.

وضعَ يده على كتفي بشيء من التودد القاسي.

- ولكِ أن تعرفي منذ الآن، إن عدتِ إلى استشارتي من جديد: أنا صبور

(2) مادة في دم القرد وبعض البشر تنتقل عند عمليات نقل الدم وتسببُ أمراضا (المترجم).

مع الأطفال، لكنني لستُ شفوقا أبدا مع الراشدين المتباكِين. وإن تهالكتِ أمام أول ظرف، فلا تتوقعي مني أي لطف. عليكِ أن تتذكري، أن من يعنيني هو الطفل قبل أي شيء آخر.

- سأتذكر ذلك، أيها الطبيب.

هشاشة وِين بقيت متمكنة منه، كما لو أنه متأرجح دوما بين عالمَين، بين حدودَين. يبقى بين يدَينا الخائفتَين كائنا صغيرا أتى من سحر الأيام، ويمكن أن يرحل على عجل، وقد نهشَه الليل. ما يتهددنا كلنا: أن نعيش بقناعة مفادها أن أتفه الأسباب سيسبب له مرضا مُعديا، وأن تجعل منه صحتُه الضعيفة كائنا على حدة، وأن يكون منحنيا فوق أسرار لا يفقه منها شيئا، فيما هو شديد التعلق بي.

المخاوف، البكاء غير المنقطع، ما تشعره الأم ولا تقوى على تفسيره.

الليالي التي نمضيها قرب سرير الطفل، للاستماع إلى تنفسه، للارتواء من مرأى وجهه، ولبذل اللطف من دون انقطاع. هكذا نعوم، نسافر، نمضي إلى الفقدان، بل إلى الخسران، لكن تلك النفس المنغلقة والسرية باقية فيه دوما. جسده الهش يتباعد، لكننا نتشبث بصارية الذكرى، وأنه سيكون هنا دوما.

بديهياتٌ تَظهر خلال الساعات المتمزقة بين النهار والليل؛ أن تعيش وأن تتألم، أن تحب وأن تخون وأن تُخان. إلا أن هناك حقيقة أكيدة: حيث سيكون طفلي، سأكون. هذا هو وفائي الأكبر، والمؤلم.

3

في هذا الصباح لا أثر لأي ابتسامة، لأي تعبيرِ فرحٍ في وجه الطبيب. ألقى نظرة على وِين من دون أن يتفوه بأي كلمة، أخذنا بذراعَينا، ودفعنا إلى خارج الغرفة. لم نعترض على فعلته، لا ديف، ولا أنا. كلانا في حالة إذعان عميق، فيما نتجه بشكل غير ملموس صوب مكان حيادي، حيث لا ينتظرنا الرمل المتحرك للمرض.

ما إن حللنا في الصالون، وقفتُ إزاء النافذة.

كانت الشمس قد خرجتْ تماما من غلاف الغيوم، وقد بددتْها باهتزازات الأنوار. باتت الشمس كالحة للغاية، واستجمعت الأشجار ارتجافتَها الصفراء. الشتاء القطبي بارد ومنير، ملوَّن وشديد البياض في الوقت عينه. يعاكس النهار نفسه عدة مرات، حسب الساعات، مبدلا مزاجه وأحواله.

على حافة النافذة، يحطُّ غراب في مستطيل من الشمس، نافخا ريشه لكي يقوى على مقاومة البرد. وردة هزيلة نجحت في أن تبقى مزهرة، غريبة في عزلتها القرمزية بين مساكب الأرضية العارية والرطبة.

من الجهة الأخرى للطريق، تتعالى شجرة «البانيان»[3] في طولها، في تشكيل متاهتها الصابرة، بين أذرعها وجذورها. لعل الأطفال سيندسون

---

(3) شجرة من الفصيلة التوتية (المترجم).

فيها، يلعبون «الغميضة»، ولعل الشجرة ستشهد انقضاء أسرارهم الأكثر عتمة، وأحزانهم الأكثر صبيانية واضطرابا.

شجرة «الجمبوزييه»[4] كبرت في هذه الحديقة طوال أكثر من ثلاثين سنة. حَملت، في السنتَين الأولين اللتين عشنا فيهما هنا، ثمارا عديدة ذات لون وردي شاحب، وهي أكثر جمالا في النظر منها في الأكل. إلا أن الشجرة انتهت إلى أن تصبح مجدبة بشكل مباغت، وكان هذا فيما بدا لي علامة وحيدة على هَرَمها. ذلك أن مرآها يبقى مشرقا، بأوراقها الكثيفة، المتقوسة مثل قبة، وبظلالها الناعمة، المتقطعة بزخات ضوئية، حيث في إمكان الطفل أن يصطفي مملكته الشخصية، وأن يبني فيها يوما بعد يوم كلَّ أحلام طفولته.

هناك، في البعيد، تقاطيعُ الجبل، التي لا نحسن رؤيتها في زمن المطر والغيوم، فيما نراها اليوم جلية في السماء الشاحبة. أما قمة بيتر بوث[5]، ذات الأشكال النحتية والمجنَّحة، فتبدو، في هذا الصباح، متشحة بشقوق من ضوء، وبضربات ذهبية فوق رأس القمة. يعاودني التفكير، إذ أراه على هذه الصورة، كثيفا وصابرا أمامي، في صعودنا إليها، ديف وأنا، قبل سنوات بعيدة، وقبل زواجنا.

وأنا، إذ أتذكرها، فذلك لأنني عرفتُ فيها لحظة الشراكة الحقيقية الوحيدة مع ديف. ذلك أن هذا النهار كان منطلقا ونهاية في الوقت عينه، وبدأنا بعدها نزولنا الأكيد. انطلقنا في مشوارنا مع شيام أخي، مع مرغريت صديقته. لدي رغبة في محادثة ديف عن هذا المشوار، في أن أغيب قليلا، ولو للحظة، عن هذا البيت الحزين للغاية، المثقل بكلمات منطفئة. أستمع إلى نفسي أقول له، في صمتي، إزاء نظرته المحتجِبة:

(4) شجرة ذات ثمار، في جنوب شرقي آسيا، معروفة بطولها (المترجم).

(5) بيتر بوث (Pieter both)، هو الحاكم العام الأول للمناطق الواقعة تحت السلطة الهولندية من الهند (1586-1615)، وحملت اسمَه إحدى قمم جزيرة موريس (المترجم).

- كنتُ أخشى عملية الصعود هذه، في البداية، لكنكَ قدتَني ودفعتَني إلى الأمام. كانت كتلة الجبل الهائلة أمامنا، حولنا. كانت تغمر عيوننا، أفواهنا، أنوفنا، فيما كانت تنتشر بيننا رائحة الخضرة اليابسة، المتقاطعة مع حصى صغيرة.

لم يكن هذا الجبل كبيرا، لكن أشكاله المشحوذة من هذا الجسم البركاني المتحجر في التواءات صعبة تجعل منه خطرا. غالبا ما تصبح المنحنيات أسهل، كما لو أنها تدبِّر لنا منافذَ خروج، كما أن الأحجار كانت تتناقص بدورها. روائح مجهولة تفرُّ من تقويرات الجبل، وروائح ناشفة ومسكِرة مثل حماسة قديمة.

طيور السنونو السوداء تجوب السماء بأحجامها الضخمة. كنا نسمع حفيف أجنحتِها الرطبة، وكان صفيرها يطنُّ في آذاننا. كانت تنقل معها بقايا عشب يابس، وأغصانا، ووسائد صغيرة من الطحالب، وحصى صغيرة أحيانا، من أجل تسوية أعشاشها في وجه الريح. سيقول لي ديف، وقد تنبهَ إلى ما أوجِّه إليه نظري: سترَين، في الجهة الأخرى، القشَّ في أذيالها. هذا ما يجعل طيور السنونو ثقيلة بالمقارنة معها. سترَين كيف أنها طيور رشيقة في طيرانها، وبخاصة حين تطير زوجا زوجا. إنها عصافير ساحرة، طليقة الروح بشكل مدهش. لا يمكننا النظر إليها من دون أن تؤثر فينا.

كنتُ أنظر إليه مندهشة، لأن ديف ما كان يتلفظ إلا بكلمات اعتيادية وعديمة النفع، عدا أنني ما كنتُ معتادة على سماعه وهو يتحدث عن السحر والرشاقة. لعله الجبل ربما، وقد فعلَ فعلَه فيه، وحوله. كنتُ أرجو استمرار هذا الشعور طويلا، لكنني ما كنتُ أعرف ديف حق المعرفة، خصوصا عتمةَ الليل المختبِئة في عينَيه.

أخي شيام أرسل صوبنا ابتسامة صغيرة وغريبة، أشبه بتكشيرة. كنا قريبَين الواحد من الآخر، ويفصل بيننا أقل من سنة، عدا أننا تربينا معا،

متضامنَين بقوة، وأقرب إلى توءم. له تعود فكرة تسلقنا الجبل، ولم يكن غرضه من المشوار جمعَنا، ديف وأنا، بعيدا عن جو البيت الضاغط، وإنما أراد هذا له ولمرغريت نفسها، التي كانت تصعد بتؤدة معنا، من دون أن تتلفظ بأي كلمة. كانت صبية سمينة وكئيبة، شعرُها مجعَّد، وفمُها مرتبك ومُغِمٌّ، عدا أنها بدت ضخمة للغاية إلى جانب شيام، الذي كانت له لطافة تكاد تقرِّبه من النساء. كان يحب مرغريت حبا غير عاقل، لدرجة أننا بتنا مقتنعِين بقوة هذا الحب، ومن دون حدود. هذه حالنا كلنا، ما عدا والدتي التي بمقدورها أن تكافح بعناد حتى اللحظة الأخيرة من أجل هذا الفتى، الذي كان حياتَها كلها، والذي حلمت له بأجمل مصير، لأنه وُلد، في حسابها، مغمورا بجميع الهبات. حين قرر أخي الارتباط بمرغريت، ظنتْ والدتي أنها كانت لا تزال قادرة على توجيهه ومراقبته، مثلما فعلتْ دوما في السابق، بعناد الأمهات الذي لا ينقطع، لكن شيام أظهرَ، هذه المرة على الأقل، ثباتَه في رأيه، وبدا أكثر عنادا منها. على أي حال، لو أذعنتْ أمي للقاء مرغريت، للتعرف إليها، لكانت أدركتْ استحالة كرهِ هذه الصبية المأساوية، واستحالةَ الانتصار على حبها العادي للغاية. لكنها كانت ترفض الاجتماع بها، وكان شيام يبحث دوما عن حِيَل للقاء بها بعيدا عن الأنظار.

كانت الشمس قد اكتست نورا يُعمي الأبصار، وكنا غير قادرين على مواجهته. كنتُ قد بددتُ قدرتي على التقدم، وراحت عيناي تدمعان.

ولكن، بمقدار ما كنت أصعد، كنت أشعر بأنني بتُّ سكرانة، مجنونة. راح شيء يهتز فيَّ. في نهاية هذا المسار، يقف ديف.

كنت أعتقد بأنني أحبه، منذ اللقاء الأول بيننا في زواج إحدى القريبات. إلا أن مشاعري تجاهه بقيت، في الإجمال، معتدلة. لكن فسيفساء هذه العلاقة كانت قد انعقدت بكل ببساطة. كما لو أن الحياة تجري في درجات متتابعة، وأنها منطقية بطريقة غريبة. كلُّ شيء كان منتظرا، وكلُّ شيء كان متوقعا.

كنتُ أنظر إلى هذا كله كما لو أنه المصير، فيما كان يعني غياب الخيار. كانت الظروف توفِّق بيننا، ديف وأنا، ولم يكن لدينا أي سببٍ لمعاكستها.

سيكون زواجنا شيئا طبيعيّا، كما لو أنه يتَّبِع قانونا عضويّا. ولكن لم تجمعنا المودة، لو شئنا الدقة، لا من ناحيته على أي حال، ولا حتى من ناحيتي، إذ بدت ملاطفتي له وهمية، متكلفة. لم يكن هناك غير «الاجتماع» الشكلي، من هذه الجهة ومن تلك، حيث العائلتان قاعدتان، تراقب إحداهما الأخرى، وتحدق فيها، وتعمل كلُّ واحدة منهما على تنمية «الشراكة» بإحصاءٍ ذهني لفوائد هذا الزواج، فيما كان ديف يُطلق نظره ضَجِرا عبر النافذة، تائها في أحلام قوته، فيما أجهد، من ناحيتي، من دون أحلام، في إدارة الأمور، وأنظر متخيلة الفضاء الواضح لحياتنا المقبلة. لهذا لم يتأكد كلُّ واحد منا من سيطرته الفعلية على الآخر، إذ ظلَّ كلُّ واحد منا مالكا نفسه، على أن هناك رابطا يجمعنا؛ لكنه كان رابطا غائما، فارغا، غير قابل للمس. إذ كنا نظن أننا نقوم بخياراتنا، كنا منقادين، بطريقة سرية، من قبل العائلة.

إلا أن هذا التصاعد كان مربكا. احتجتُ، للمرة الأولى، إلى شجاعة غير متوقعة. كان عليَّ أن أتمظهر بما ليس مني، بنوع من الحماية لما هو حقيقة جُبني. كل هذا كان يصيب رأسي بالدوار وجسدي بالوهن. كنت أفكر في أبي، في ثباته المتين، وفي اعتياداته المضغوطة فيه: ما كنت سوى نسخة عنه، ولو كنتُ تركت حياتي على تلقائيتها لكانت سارت وفق المسار عينه، من دون أن أعرف أي ألق، أي رغبة، أي انفجار. لعلي سعيت إلى أن أكون مختلفة عن فاسنتي، لكي لا أكون عرضة للنقد، مثلها.

(كانت فاسنتي ابنةَ خالي سنجيفا، كانت القريبة التي محوناها كلنا من ذاكرتنا. كنا، شيام وأنا، نتحاشى الكلام عنها، وما نطقتُ باسمها أبدا أمام ديف).

كانت الريح تلفحنا بقوة. نسيتُ فاسنتي، واقتربتُ من ديف؛

التصقتُ به للتهرب من شبح فاسنتي الذي يتراءى لناظري في مناخ العزلة والقسوة هذا. أحاطَني بذراعه، مندهشا. بعد ذلك، شدَّني إليه، فيما كنا قد توقفنا فوق أحد المنبسطات الخارقة، وتركنا الآخرَين يسبقاننا. ثم تابعنا مسيرنا صامتين، فيما كنتُ مدفوعة بقوة لاهثة في جسم صبية في الثامنة عشرة من عمرها، بين الرغبة والارتعاب. النبض الداخلي تسارعَ، وتأكدَ، حتى أصبح تردادا مجنونا لاسم ديف. لم تكن السماء تعميني، وإنما كانت تغمرني ببريقها، وتُذيبني فيها، وكنت جزءا منها. بات الكون أمامي، تلك الجوهرة الصغيرة من الخضرة المتمثلة في الجزيرة، بوجوهها المتلاحقة، وتحولاتها الخارقة. كان يتصاعد من الجبل النَّفَسُ المضطرم لانفعالي الأول الأكيد، والشعورُ الأول الذي قادني صوب رجلٍ غير شيام. إنه الجنون الذي سيدفعني من الآن وصاعدا صوب كل ما هو مفرط، بعيدا عن الاعتدال الذي كنتُ قد تقيدتُ به سابقا. أبعد من هذا، تصعد هناك عتمة غير أكيدة بعدُ، من دون أن أعلم شيئا عنها. لهذه العتمة اسم: المستقبل، ولها اسم آخر: الواقع، ولها ماض غارق في السر. وقد تَحْمل أيضا بشكل سري اسم: فاسنتي، واسمَ تلك الذكريات التي تربطني بها. كان عليَّ أن أقطع تماما مع هذا الشبح، الذي يهدد بإطفاء حماستي. أخذ ديف بيدي:

إننا نرى الآن الدوائر السديمية التي تُحدثها الطيور، زوجا زوجا.

ننتهي بالعودة إلى الواقع، إثر تعثرنا في المشي، خارج الوقت. شيام وأنا تابعنا المسار عينه في هذا النهار أيضا، بعد أن قادتنا الغريزة المشتركة التي ميزتنا دوما. حين كنا أطفالا، كنا ننظم سويا هروبنا، وكنا نتشارك أيضا اكتشافات مراهقتنا، وأفكارنا، ومشاعرنا، وما نستشعره. حاليًا، بعد أن تعثرنا في عالم الراشدين هذا، حيث الخيارات صعبة للغاية، تقدمنا إلى الأمام فجأة، مجتازين حاجز الطفولة الحامي لنا، ملتزمين بالحب غير

الأكيد الذي غامرنا في رحابه. تملكَ أخي مرغريت، وأنا ديف، وتبادلنا النظرات مصحوبة بذات الابتسامة القديمة، الابتسامة المتواطِئة، التي كانت تُنشئ بيننا تشابها غريبا. عرفتُ عندها، إذ تحققتُ من الأمر، أن أمي خسرت الرهان.

بعد ذلك بقليل، بلغتْنا غيوم الهضبة الأساسية في الجبل، وباتت فوق رؤوسنا، واسودت السماء بفجائية معهودة في المناطق الاستوائية، فيما اجتاحني بردٌ منذرٌ بالعوارض. أخذَ المطر بالهطول بألوان فضية، جارفا معه الحصى، من دون أن يبللنا. علينا النزول الآن، قال ديف، وكان الأول الذي عاد إلى راهننا الذي كنا قد تفلتنا منه منذ عدة ساعات. أما وجه مرغريت فقد بات عاصفا مثل السماء.

- لا أريد نهاية لهذا النهار، قالتْ وسط دهشة الجميع، إذ إنها قلما كانت تُطنب في الكلام.

- لا تتضايقي، يقول لها شيام، سيتغير كل شيء الآن.

إلا أن عينَي مرغريت المعتمتَين بدتا غير مكترثتَين بهذا الوعد، الذي يُسقط بيسر جميعَ الحواجز العديدة في طريقنا. كان لمرغريت حياة غير التي عرفَها شيام، ووجودٌ من دون حماية، من دون عاطفة، مع ضربات البؤس وصدماته، والإقامة الكريهة في مدن الضواحي الفقيرة. لم تكن لها بعدُ القدرة، شبه الطفولية، التي لها أن تُبعد الأشياء حتى خواتيمها. إلا أننا، شيام وأنا، كنا متشبثَين بإصرار بمزاجنا المتوقد، مسترسلَين في ضحكاتنا وطرائفنا. كان ديف ومرغريت متضايقَين، على ما يبدو، من البهجة التي نتناغم فيها مع أنفسنا، والتي ما كانت تصل إليهما. أجبرني شيام، وقد أمسكَ بيدي، على النزول في منحدر معشوشب ومتلألئ بفعل المطر، ولم أبالِ بما حذَّرتني منه مرغريت المرتعِبة. كان المطر الخفيف أشبه بزغب الطير، ما يجعل الصخور منزلقاتٍ خطرة؛ بل بدا لي المطر حاملا روائح

عطرة ووعودا. ما عدت أعرف ما إذا كان فرحي يتأتى من حضور ديف أم شيام. أعتقد بأنهما اختلطا معا.

كنت أظن أنني أطير حتى المكان المنخفض. فلتتْ منا ابتساماتنا وتعانقت، مولدة انصهارا شديدا. طرنا، شيام وأنا، مثل طائرَين كبيرَين بأجنحة متباعدة. كان الهواء نقيا وقويا، محملا بقطرات من الفضة المُسالة، نافخا في جسدَينا قوته. لم أعد صابرة على ألا أكون لديف. لن أخاف إذذاك من أمي، ولا شيام كذلك، بعد أن تحلى بأنواع الشجاعة كلها، وبات جاهزا لمواجهة قدره.

لقد طرنا.. أهذا ممكن؟ هل تَحمل المراهقة معها مثل هذا القدر من الانتشاء، ومن الأوهام؟ أنظرُ، اليوم، بعد سبع سنوات -وهو إلى جانبي- إلى زوجي، وهو بجانبي؛ أنظر إليه بعينَي عذابي، وأتيقن من أنني أخطأت: في هذا اليوم أيضا، لم يكن على تناغم معي. لم تكن سوى بهجة عابرة، لم يبقَ أثر منها فيه، فيما حوّلتنا، شيام وأنا. كان في ذلك اليوم، وهو في هذه اللحظة، مثقلا بالرصاص.

أدور نصف دورة صوب ديف، قاطعة سلفا حركة تُقرِّبُه مني، وقبل أن يباشرها.

أدركُ، أعرفُ استدارات وجهه كلها. هذا الوجه الرجالي الذي له أن يواجه الواقع بتصميم، أيا كانت البشاعة التي يُحكى عنها، أو يُتحسب لها. الذي له ألا يستسلم لأي جزء من حلم، خشيةَ إتلاف قواعد الحياة نفسها. هكذا كان، على هذه الصورة، وهذا ما كان عليه دوما. إلا أنه يبدو لي، في هذه اللحظة، كما لو أنني أكتشفه فقط، ما يُوقظ فيَّ تمردا قديما لم أحسن أبدا فهمه. نجحَ في إيلادِ بديل تراوح بين الحب واللامبالاة، بين الاحتقار والخوف بداخلي. جعلني مستلَبة من كل الهبات التي كان في مقدوري توفيرها له من تلقاء نفسي، ذلك لأنه لم يعرف أبدا أن يمنح نفسه كاملة.

يستشعر نظرتي ويقترب مني بشيء من النعومة المفتعلة، ويقول لي:

- أنجالي، تعرفين أن حياته مهددة، وأن صحته تتدهور أكثر فأكثر..

- نعم، أعرف.

- أردتُ أن أطلب منك شيئا. أنا لا آمرك به، ولا أريد فرضه عليك. سيكون قرارك، وحدك. أفي إمكانك تقديم أضحية من أجل وِين؟

- أضحية؟ ما تكون؟ ما تقصد؟

- تدبير تضحية من أجل حياة ابننا. عذابٌ تهبينه لله، لكي ينقذه من مرضه. سيكون المشي فوق النار.

أختفي تماما في زاوية النافذة. من وقت بعيد كنت أنتظر، كنت أخشى هذه اللحظة، وهذه المواجهة. كلما استدامَ صمتي تبينت فيه هذه العلامات المنذِرة بغضب شديد.

هذا الغضب الذي أفقد إزاءه جميع وسائلي، عقلانيتي، وكلَّ طاقات التفكير لدي.

لا أجد سوى بديل واحد. السقوطُ الحر، فقدانُ كل شيء، مثل انزلاقة لا تنتهي، حيث الأيدي المذعورة لا تجد ما تتمسك به، ولا تتوصل إلا إلى فراغ مزيد وهائل. خشيتُ دوما من هذا الشيء الذي سيطالبني به، ولا أقوى على فعله أبدا. أعرف، على الرغم من تمتعي بمنطق أكيد، ومن مناداتي بالقرار الحر، أن هذا الشيء محمَّل بزخم رهيب له أن يدمرنا كلانا. ذلك أنني غير قادرة على القبول.

أحاول مرة أخرى تحكيم العقل:

- أرجوكَ، لا تعاود هذه المناقشة: أنت تعرف بأن هذا غير نافع، أنتَ تعرف بأنني لست مقتنعة بهذه المراهنات.. ليس في إمكانك أن تلزمني بها.

- هذا ليس من المساومات، إنه هبة. أتفهمين هذا؟ إنه هبة.

ينقفل وجهه، يستجمع دفاعاته كلها ضدي. ثم يضيف متسلحا باحتقاره:

- الأم التي ترفض تقديم الأضحية ليست بأم.

أحيد عنه، لا أعرف بماذا أجيبه، إذ لا جواب عندي. نصل دوما إلى نقطة التوقف هذه، إلى هذا الطريق غير النافذ، حيث لا تتمة ولا متابعة ممكنة. كان علينا دوما أن ننعطف عن طريقنا، أن نبدله، متحاشين نقطة الصدام، متحاشين الأزمة، إلا أن هذا ما كان ليدوم دوما. وقعتُ أسيرة في لعبة الهرب التي تدبرتُها.

لا أستطيع الإفصاح عن الأسباب الحقيقية لقلة إيماني. إنه باب موصَد، تقبع خلفه أنواع من الهرب، ويرقات من الأفكار التي لا أرغب في التصدي لها.

ما كنت أعتقد أن لحظة الصدام ستأتي عندما كنتُ في أحطِّ أحوالي، منهكة إثر ليالٍ وليالٍ من السهر والغمِّ، مستمدة من احتياطي قواي الطاقةَ من أجل الكفاح الضروري لإنقاذ ابني. ما كنت أظن أنه سيختار هذه اللحظة بالذات لكي يدفعني صوب الخيار، ما سيتحول إلى مسألة ضمير.

أو لعلي ظننت بأنني سأنتهي إلى كبح خوفي، وإيجاد هذه الثقة التي لطالما استشعرتُها في طفولتي، لمّا كنت أتبع الزياحات الطقوسية. كنتُ أمشي بين الحجاج الذين كانوا يتوجهون من معبد إلى آخر، حاملين معهم تلك التجهيزات الثقيلة، المصنوعة من شجر البامبو، والمزيَّنة بالزهور، وبأوراق الليلك ورِعي الحمام، فيما كانت تغمرنا كلنا أصوات الطبول والأناشيد. كان هناك فرح كبير وسكينة كبيرة في نفوسنا. كان البعض منا يتألم، والبعض الآخر غارقا في شطح عميق ما يبدد أوجاعه. إلا أنهم كانوا سعداء كلهم. كنتُ مثلهم أيضا، أمشي

في حرِّ بور-لويس[6]، بقدميَّ العاريتَين فوق الإسفلت المحترق. كنت مثلهم.. حتى اللحظة التي حدث فيها «الحادث»، مثلما أسميناه حينها، ودمر فيَّ كلَّ ثقة وكلَّ إيمان بهذه التضحيات.

«الحادث».. فاسنتي ذات الشعر الطويل، الذي استحال إلى لون برتقالي في الشعلة الحمراء الكبيرة. كانت العصافير تصرخ، وكان الليل يمضي، ويغرق في مهاويه العميقة، فيما يلسعنا بأنفاسه الممزقة. زعيقٌ صامت يتصاعد فينا، ما لا نقوى على ردِّه. لا شيء؟ بلى، كان في إمكاننا، مع ذلك، القيام بشيء. لكن السماء كانت تتصدع، والأرض تنشقُّ في أثلام كبيرة مذهَّبة، مثل دربٍ للمجد، والغيوم كانت تعكس أنوار فاسنتي الغريبة. لم يكن أمامها غير أن تتابع طريقها. أما أنا، فكنت أقول لنفسي، ما دام لي قرار، ما دام الأمر يتعلق بي، فإنني سأقول: لا.

* * *

لا، لن أقوى أبدا على الشرح، ولن يَفهم الأمر قط. له من الرجولة الكثير، ما يجعله ينتظر من المرأة الطاعةَ من دون شروط، ويشترط على المرأة أن تتبعَه، مهما كلف الأمر، ولو بأقدام دامية، ولو أصاب قلبَها مقتلٌ، ولو تخلت إلى الأبد عن قرارها الحر.

بات الوقت متأخرا، الآن، لكي أطالبه بهذه الأشياء الضرورية: شراكة المساواة، الحنان الغريزي، الصحبة القريبة من الصداقة، وعطاء اليد الممدودة، والكثير من التوافق السري.

فيما يخصه، يحتفظ لنفسه بصورة منيرة، مصحوبة بهالة حنين شديد، لامرأة هندوسية متباهية بأنوثتها، بوفائها، وبمرونتها. طفلي مريض، ويطالبني بالمستحيل.

انتفض كلانا، حين فتح الطبيب الباب. شيء ما، فوق وجهه الممتقع،

(6) عاصمة جزيرة موريس، التي تدور فيها أحداث الرواية، وتتحدر منها الروائية (المترجم).

أصابني بما يريد تأكيده.

قناعٌ من القلق فوق وجه الطبيب برادان، المطمئِن عادة. دخلنا إلى الغرفة، التي غزتْها هذه الرائحة الحارّة والسميكة التي تسود فيها، ما يحيط بسواده أطرافَ السرير الذي ينام فيه وِين، واضعا خده على راحة يده، فيما تتساقط قطرات من عرقه الرطب، الذي يلمع فوق وجهه ذي التلاوين الشديدة. لا يكاد يشبه الطفلَ الصغير الضحوك الذي عرفناه.. يبدو على ديف كما لو أنه ينظر إليه بغضب، لكنني أعرف أنه غضبٌ ناتج عن العجز، عن استحالة العصيان.

أركع قرب سريره؛ مضى وقتٌ طويل، ولم يعد ديف عالمي الأكيد. في الوقت الراهن، بات هو العالم، ذلك الطفل النائم هناك، الممسك بأسرار حياتي، ولا يسعني غير أن أهب نفسي، يائسة، وأن أتبرع بحياتي، بجسدي، أو بأي شيء آخر، لقاءَ التكفير عن ذلك الشيء الغامض الذي جذب إليه المرض. يخيل إليّ أنني أستمع إلى صوت ديف، وهو يقول لي، بما يشبه اللوم: هذا ليس من المساومات، هذا هبة.. نعم، أنا أعرف هذا، لكنني لست قوية كفاية، ولا أعرف ما بإمكاني فعلُه من أجل هذا المخلوق الصغير الذي يُبدي استغرابه الشديد، في كل مرة يتأكد فيها من مرضه، فيما يبقى هادئا، بل سلبيا. يتقبل مرضه لأنه لا يعرف أنه لا يستحقه. يُدير صوبي نظرات ألمه، ويعتقد أن أمه الحاضرة أبدا، ذات القوى الهائلة، قادرة على معالجته.

إلا أن هناك أشياء أخرى تسيطر على الأم. كان هناك وقت، ربما، تملكنا فيه بعض القوى؛ قوة المداواة، قوة الشفاء، قوة التعزية. إلا أن هناك قوى أخرى حلَّت بيننا، بأيديها القاسية، واندفاعاتها صوب الهاوية، وفرضتْ علينا عبوديات أخرى.

كانا يتباحثان فيما بينهما بأصوات خفيضة، إذ كانا خائفَين من

ردات الفعل، الممكنة والمتناقضة، للسيدة الجاثية. إلا أنني كنتُ أشعر بالهدوء، مستعدة لفعلِ أي شيء. كنتُ مسلحة إزاءهما بإيمان المرأة، إذ تفكر بتغذية الطفل بذلك السائل الذي لم يعد سوى نَفَس حياة.

أخيرا يتدخل ديف بصوته الخفيض، من دون أن يقوى صوته على اختراق السور، ولا الدرع القائم في رأسي:

- اسمعي، أنجالي. يعتقد الطبيب بلزوم إدخاله على الفور إلى العيادة.

يبدأ دوما جملَه بهذه العبارة: اسمعي، أنجالي، حين يعتقد بأنني لن أتخذ مواقف عاقلة. برادان يزيد على كلام ديف كلاما بالإنكليزية، لكي يُخفي، ربما، انفعالاته، وتعبيراته المحلية، كالعادة:

- (بالإنجليزية) أترَين، يا عزيزتي، سيكون في حال أفضل، في العيادة، وفي إمكاننا إجراء التحاليل الضرورية فورا، ثم وضعُه في الحقن المتواصل، إذا كان مرضُه التهابَ السحايا، فإن هذا سيكون داء حميدا، بالطبع.

داء حميد؟ أنظرُ إلى ابني، وأنا أعرف أنه ليس بالداء الحميد. عينا الطبيب تخونانه، عينان مترددتان وشاحبتان. ذقنُه، كما لو أنه يرتجف، فيما يسعى جاهدا إلى الابتسام بقدر من الشجاعة. حريص على وِين حرصَ الأب على ابنه؛ أشعر باشتداد ضربات قلبه، وفيما يحدق مليا في الطفل، يدفع يده ببطء ويزيح خصلة رطبة من شعره بعد أن التصقتْ بجبهته.

أمسكتُ بيد ابني، قبلتُها، هي ذات الأصابع الرقيقة، وذات الأظفار الوردية. بقيتُ في وضعية منحنية إزاء هذه اليد التي كنتُ أمسك بها مثل مخلوق مستقل وحي، والتي تُمثِّل وحدها أعجوبة الخلق، وهشاشته.

أخفض رأسي لكي أتحاشى النظرات الضاغطة، والجلفة، من رجلَين يعلوانني. أحدثَ الألم ثقبا كبيرا في جسمي؛ وكلُّ شيء يَعْبر من هنا، كلُّ ما يجعل الحياة حياة، كلُّ ما يجتمع أحيانا لبناء ما يشبه السعادة، كلُّ ما يقيم شخصياتنا في جذوعها لكي يمنعها من الانهيار عند حدوث أي صدمة مفاجئة. أشعر بأنني جرداء ومفرَغة مثل سماء من دون نجوم، وأرى ديف، في هذه العتمة اللامتناهية والبعيدة، يرفع الطفل من فوضى الأحرمة والشراشف، ويَحملُه، ويبتعد به، من دون أن أقوى على تحمل هذا الفراغ، الذي في داخلي، ولا أقوى إلا على الخضوع لمّا يطلب مني ديف تهيئة أغراض وِين، وقد صاحبَ قوله بتلك القناعة الراسخة التي لا تحتمل: حاولي أن تكوني نافعة، من دون أن يقولها.

4

رُجوليٌّ حتى النخاع، يسعى إلى إشغال نفسه. يأخذ ملفا كان قد جلبَه معه بعد الظهر من مكتبه، ويجلس في المقعد الأقرب من المصباح، ويجد قصاصة ورق لتدوين ملحوظاته. هذا كله كان اعتياديًا، من أعماله اليومية. بل حضَّرَ لنفسه شرابا، وراح يتذوقه لاحسا شفتيه. باتت العدة جاهزة، وبات الحيوان خاضعا لشروط تكيفه. لا يهم إن كان يتألم، وإن كان دمُه يسيل في داخله، حيث لحم الجلد رخو وحساس، والروح مهتزة. حيث الأجلاف كلها ممكنة، والقلوب ضائعة في تيهها، من دون أن تعلم وجهة سيرها، ولا ما تفعله. يتوجب التمسك، بأي ثمن، بالادعاء، بهذا الشعور المضني بأننا موجودون، وبتثبيت أقنعته على الجلد.

يختفي في ملفاته، في مهنته كرجل قانون، وما يتبقى يبتعد في نوع من النعاس الأقرب إلى حلم، والأكثر صحة من مخاوف العتمة لدى طفل.

فيما يخصني، أبقى هنا، مثقلة بشعور رهيب باقترافِ ذنب. ما تقترفه امرأة، من دون قيود.

أخجل من دموعي السهلة التي تخفف من شعوري بالضيق، وقد جلستُ مؤقتا على حافة كرسي، غائمة ومترددة النظرات، كما أنني أشعر بالخجل من جراء عدم تساقط دموع أخرى.

ديف، في هذه اللحظة، يجعلني أفكر في ذلك الرجل الذي دافعَ لأول

مرة عن قضية في محكمة الجنايات، قضيةِ فيصل؛ لمّا عاد إلى المنزل، في ذلك المساء، بعينَين متوقدتَين، ونفَسٍ قصير:

- في هذه المرة، سيكون النجاح بجانبي.. بجانبي، راح يردد على مسامعي بشيء من التخبط. في قوس المحكمة، تنبني السِّيَر المهنية، والمكانات أحيانا، إثر قضية واحدة، من جراء مرافعة يستعرض فيها المحامي موهبته. يعمل ديف منذ بداياته المهنية، مثل المحكوم بالأشغال الشاقة، من دون أن يكون قد اكتسب بعدُ الشهرةَ الغالية على قلوب أهل مهنته.

في قضية فيصل، نجح نجاحا باهرا في ما كان يبحث عنه. كان فيصل من أغنياء تجار المخدرات في العاصمة، تحت غطاء دكانه الصغير البائس، وكان له أن يكون قيد الاعتقال منذ زمن بعيد، ما دام أن أحدا من أشغاله لم يكن بالسري. إلا أنه كان يوزع مظاريف صغيرة، محشوة للغاية، وفق انتظام الساعة، على طاولات موظفي الشرطة، والإدارات الرسمية، والمحامين، بل بعض الوزراء أيضا، ما بنى له، على مرِّ السنوات، حصنا مذهلا من المناعة، منيعا على الكسر.

لكن فيصل انتهى إلى ارتكاب خطأ حين ضرب، إثر مشادة عنيفة، والدَ زوجته، ضربة قاضية له، وهو العجوز الثمانيني. جرى إيقافه وسجنه من قبل شرطي غيور على مهنته، قبل أن ينتظم عمل آلة التغطية. فهناك شهود استمعوا إلى النقاش الحاد حول قضيةٍ قذرةٍ بخصوص مجوهرات، وبلغَهم كذلك صراخ العجوز وهو يتساقط أرضا.

لو نجح ديف في الاستحصال على حكم البراءة، فسيجلب له الأمرُ التكريسَ الأكيد. وسيفوز من فيصل، إلى ذلك، بحماية لا تُنكر. أما المحامي الشهير في العاصمة، الذي اتخذه مساعدا له، فقد كان يحسن تماما معرفة اندفاعاته الغريزية: كان ديف يعمل بكل قواه، ويوزع الإكراميات من

تحت الطاولة، والوعود، وينجح في إخفاء ورقة من تقرير الشرطة، ويتوصل إلى جلب شهود مزيَّفين. بل انتهى هؤلاء إلى تدبير مذنِب في القضية..

استحصل ديف على إخلاء السبيل، وتصدرت أخبارُه الصفحات الأولى في الجرائد. كان في التاسعة والعشرين من عمره، وكانت الحياة تسعى إليه. نجحَ، بفضل ذكائه، في تدبير كميات كبيرة من الحِيَل، وباتت ابتسامته لاذعة، ما لم يكن لي عهدٌ بها. على أي حال، في ما يخصني، جرى إسقاطي في الطريق. ولي - إن شئتُ - اللحاقُ به، بخطى صغيرة، فيما أكاد أراه..

- بماذا تفكرين؟ سألني بشكل مفاجئ.

- فينا.

عقدَ حاجبَيه في إشارة كافية إلى أن الموضوع لا يعجبه. ثم صرَّ على الفكَّين؛ وبعد ذلك تراخت يداه، بعد أن كانت، قبل دقائق قليلة، تُعذِّب الأوراق التي تَحملها. يهزُّ الملف أمام ناظري.

- إنه ملف القَدح الإعلامي الذي حدثتكِ عنه. هي قضية رجلٍ مصاب في كرامته الإنسانية فوق منصة عمومية. هو يطالب بنصف مليون تعويضا، هذا قليل بالنسبة إلى الكرامة الإنسانية، ألا تعتقدين ذلك؟ سأبني دفاعي على هذه النقطة بالذات. وإذا كان هذا البرلماني قد نجح في تحديدِ سعرٍ لكرامته الإنسانية، فهذا يعني أنها لا تساوي هذا المبلغ. أفي إمكاننا شراءُ سمعةٍ بالمال، بعد أن تمَّ التعريض بها علنا، وفي كلامٍ جرى تلفظُه أمام الجمهور؟ ستكون مسألة مبدأ. أحب قضايا مثل هذه، إذ تتوصلين إلى سجن خصمك بفضل قوة الكلمات وحدها.

يبتسم، وقد حلَّقَ بفعل انطلاقته هذه. هذه الانطلاقة المسيطِرة تتحكم به، وتهدد بالإطاحة بكل شيء في الطريق. اتضحَ أن له عادات فاضحة ودالة. فهو يميل إلى تحريك ساقه بكثرة حين يكون جالسا، والساق على الساق، ما يشير إلى إثارة داخلية. ويُمرِّر محرمة فوق جبهته حتى

حين لا تنضح عرقا. كما يتنحنح في كلامه متشدقا.

باتت هيئة المحامي، في هذه الحال، أكيدة، مجربة، بحيث لا يقوى -لو شاء- على تبديلها.

- لماذا تَبقين من دون عمل؟ يقول لي. أليس لك ما تقرئينه؟

- لن أقوى على القراءة.

- امضي إلى النوم، إذا.

أنهضُ واقفة من دون أن يفارقني شيء من الغضب والخيبة، وأستعدُّ للمغادرة لوجود الهواء الطري في الحديقة.

كان الهواء أكثر حنانا، وأكثر مداعبة من ديف، الذي غرق في مقعده الوثير، الحامي له من جوانبه الثلاثة، فيما يُخفي الملفُّ المقفَلُ وجهَه من الجانب الرابع بشكل يكاد يكون تاما.

بل أكثر من المقعد الوثير، كان الصالون نفسه يغمر ديف، ويُبقيه في حمايته القريبة، إذ إن كلَّ شيء فيه دلالة على نجاحه. لم يكلفه هذا النجاح سوى أضحية بسيطة، هي أمانته، والتي انفصلتْ تماما عن هذه الجهة من شخصيته.

يجتاحني سيلٌ من العطور الليلية والشهوانية، بعد أن فارقت أمكنتها من المقابض البعيدة في هذه الحديقة المجوَّفة مثل إناء.

عشرات من الطيور البنغالية تتشبث بأغصان شجرة تفاح الورد، وتُنشد أغاني جوقها الأخير، الجنوني، قبل أن تستعيدها، ما إن تغادر (في تدافعٍ رهيب لوقع أجنحتها)، أعدادٌ من صرار الليل الخافية عنا. ثم يأتي دور الضفادع، بعطشها الدائم. نشعر مع هذا كله أن زخما ينتشر أينما كان، في هذه الساعة التي تسبق حلول الليل، حيث كل شيء يستعد للنوم، ولكن حيث لم ينمْ أحد بعد، إذ إن الأشجار، والأزهار المقفلة، والنسائم، وحتى العشب نفسه، تبدو كما لو أنها استعادت قوة مزيدة

لها. تُطلق الأعشاب التماعاتها الخضراء الأخيرة قبل أن تنطوي تحت أنفاس الليل السائلة.

أتْبع خطًا غير مرئي في الحديقة المعتمة، عيناي شبه منغلقتين، وأتنصت لنداء مبثوث حولي.

هذا يقودني إلى شجرة تفاح الورد، حيث تقع أرجوحة وِين، وقد اتجهتُ صوبها بتمهل، مدفوعة بقوة الهواء.

وِين.. الراكض في الحديقة مع ضحكته المتصاعدة من حلقه، مع بقايا أعشاب عالقة في شعره المجعَّد، بفمه الملطخ بالشوكولاته أو بالفراولة. وِين، الذي يحب الأشجار مقدار ما يحبني أنا، والمتأكدُ من أنه قادر على التقاط نبضها حين يضع يده الصغيرة على جذعها. هو الذي يسحق بين أصابعه أوراق الكافور إلى أن تصبح خضراء تماما، لأنه يهوى رائحتها للغاية. وكنا نتمرغ فوق العشب، نلعب أدوار الحيوانات المفترسة، محدِثين أصواتا من زئير، فيعضُّ الواحد الآخر دلالة على العاطفة بيننا. كان يَحدث له أن يلحسني من دون أن يبالي باعتراضاتي، إذ إنه اللعب، وعلينا أن نتكيف معه.

وِين، شِبْلي ذو الخدَّين الدائريين، والعينَين الكبيرتَين اللتَين تنضحان عذوبة - ما كان يفضحه إن ارتكبَ هفوة - وذو الابتسامة الواثقة التي كانت توجعني.

ما ستصبح عليه هذه الثقة التامة، التي تغمره تماما، وتنيره مثل شمس داخلية، حين تنزع الحياة أقنعتَها، وحين تتبين عيناه المندهشتان البشاعةَ التي في الحياة.

في الوقت الراهن، أجلس فوق الأرجوحة، تحفُّ بي الأوراق مثل شفاه رطبة، أشعر حواليَّ بوجود وِين، وبشيء آخر أيضا، بنوعٍ من اللطف الذي ينبثق من مكانٍ في عمق هذه الحديقة المعتمة والضاجة، وهو حبلٌ من

القنب يتجاسر ويجري ابتداء من هذا الحضور مجتمعا.

وسط هذه الاندفاعة، من هذا النفس الأمومي الذي تفجرَ بعفوية حولي، مؤلفا شرنقة فاترة ومعطرة، ها أنا حرة أخيرا في أن أبكي.

أشعر بأني حرة في أن أموت، أو أن أحيا من جديد، أو أن أدع نفسي محمولة، من دون مقاومة، في مجرى الزمن. أنا متقطعة لغياب ابني، متوزعة في دقائق وساعات تدوم كالأبد. لم يعد هناك من حاضر.

أنا أسيرة جانبٍ من ماضٍ وجانبٍ من مستقبل؛ ولا يبقى بين هاتَين القوتين المضادتين أي مساحة للحرية.

أظن أنني انسقتُ إلى النوم في الحديقة. أعتقد أنني حلمتُ بفاسنتي.. تبينتُ فيها ماء أزرق. كانت تسبح، وفق عادتها، في النهر الصغير. لكن هذا النهر لم يكن معروفا مني. لم يكن ذلك النهر الذي يلتف حول منطقة «كونستانس-لا-غيتي»، منسابا تحت أشجار الموز، والباباي، والمانغا المحمَّلة ذهبا، والتي كانت تجتاج ضفاف النهر، والأعشاب القاسية التي كانت تُحزز أقدامنا العارية. كان النهر جامدا، أزرق زرقة سميكة ما يجعل الأشياء كلها تختفي فيه، بعد أن التقفتْها كثافتُه. ما كنا نرى فيه غير فاسنتي وهي تسبح، بشعرها الأسود الطويل، المتراقص مثل طحلب. ما كان لها جسد، أو وجه، لكنها كانت فاسنتي؛ وكانت تتحرك من دون بذل أي مجهود في هذه الغيمة السائلة، عائمة بنعومة فوق التيار الخفي. ناديتُها، كنتُ أضحك لمرآها، كنتُ أريد الالتحاق بها، ولكنني، ما إن كنتُ أقترب منها، لم أكن أرى سوى شعرها الذي من طحلب، ولا شيء آخر، فقط صمتُ هذه المياه الجامدة، من دون أي صوت، أي صدى، أي حياة. قريبا، يختفي كل هذا، ولا يبقى سوى الريح في أسفل الأرض، وجعُ شجرة قديمة يابسة حُفر عليها: «أ.م» بالأحمر.

عدتُ إلى نفسي إثر هزة داخلية، عدتُ وفي عيني رؤية غاضبة لـ «أ.م» بالأحمر. قوة بالقرمزي، ومتعطشةٌ للتدمير. مضى زمن طويل، من

دون أن أحلم بفاسنتي.

بذلت مجهودا في نسيان ما جرى، في محو الحروق لئلا أعيشها من جديد، دوما، فيما خلدتْ فاسنتي إلى صمتها، إلى أن أخرجَها مرضُ وِين من جديد، في لعبة غريبة من التقابلات.

يصعب عليَّ التفكير فيها، الآن، بعد عشر سنوات على موتها.

بات وجهُها علامة على لومٍ دائم، على وسواسٍ لا يتمُّ الإفصاح عنه.

كان لفاسنتي ووالدها، في «كونستانس-لا-غيتي»، مكانة خاصة. كان أهل القرية ينظرون إلى فاسنتي بوصفها كائنا خارقا، ممسوسة من المجهول، قادرة على فعل الأعمال الصالحة مثل الجنيات. كان الخال سنجيفا، أخو والدتي، يسكن بيتا صغيرا منعزلا في الوادي، على مقربة من النهر. أهالي القرية والجوار يأتون لاستشارته في ما يخص مشكلاتهم الدينية العديدة، والزوجية، والعائلية، وهي الشواغل اليومية التي ينسبونها إلى قوى خفية.

لم يكن بيته سوى مستطيل صغير من صفائح الحديد القابعة تحت شجرة العندم الهندي؛ ويتألف من غرفتَين، واحدة غرفة نوم للوالد والابنة، والأخرى غرفة مشتركة لتناول وجبات الأكل وللاستقبال. حين كنا، شيام وأنا، نمضي العطلة عنده، كان يبسط لنا فراشَين في الغرفة المشتركة، وكان علينا، في الصباح، رزمُهما بعناية من جديد بخيطان مستخرجة من ألياف شجرة جوز الهند. يقع، في خلفية البيت، كوخان من صفائح الحديد، واحدٌ للطبخ، وآخر للحمام. كانا يسكنان هذا البيت منذ سنوات بعيدة؛ وُلدت فاسنتي فيه، وماتت أمها فيه.

كانت الأعشاب تغطي الوادي أكثر من القرية. كانت أشجار «الباباي» و«الموز» تنبت في الوادي من تلقاء نفسها، وكانت ثمارها ذات طعم خاص، وحشيٍّ مثل طعم لحم الحيوان، الذي يستعذبه أهل القرية. كانوا

يأكلونها، بعد أن يضيفوا إليها الملح والفلفل الأحمر المدقوق. كما كان الأطفال يحبون ثمار الغابة، وهي ما كنا نبحث عنه، شيام وفاسنتي وأنا، طلبا لثمار «الباباي» الحمراء، التي كانت تنفجر بين أيدينا من فرط نضجها، مطلقة لبابا لزجا له رائحة كريهة من فرط تخمُّره. وكانت هناك أجمات من العنّاب، ذات ثمار حادة الطعم ومغبرة، وهناك ثمار غيرها من «الجمبلون»[7]، التي كان الأطفال يتوقون إليها، داهنين وجوههم بعصيرها، هي ذات اللون البنفسجي الشديد.

كنا نحفر من أجل انتزاع البطاطا الناعمة من باطن الأرض، و«المانيهوت»[8]، وأجزاءٍ من سيقان نباتية مجهولة كنا نطهوها في الخفاء، في الغابة، إذ كان ممنوعا علينا أكلها. كنا نهوى أداء الأدوار، أشبه بروبنسون[9]، لمعرفة كل شيء، حتى لو عانينا إثر ذلك من غازات رهيبة؛ وكنا نتْبع طريق الشمس والنجوم، التي كنا نعرف منظومتها كلها، من دون أن نعرف أي اسم منها. إذ كانت فاسنتي تدلنا عليها، بعد أن علّمها والدها بعض الأسماء السنسكريتية، التي كانت تردّدُها على مسامعنا مثل نشيد عامر بالموسيقى والإيحاءات، من دون أن نفهم شيئا منه. أنا وُلدتُ تحت نجمة شيترا[10].. قالت لنا ذات يوم. وأضافتْ بعد أن امتقعَ وجهها: والدي قال لي إن هذه النجمة لا تجلب الفأل السعيد. إنها نجمة الأرامل واليتامى..

- لكنكِ لست يتيمة. أقول لها.

(7) ثمرة معروفة في جزيرة «لارينيون»، وهي شجرة استوائية ذات أوراق سميكة، وتطلب الشدة في الحرارة، ويبلغ ارتفاعها ما يزيد على العشرين مترا (المترجم).

(8) أو الكاسافا، شجيرة تزرع على نطاق واسع في المناطق الاستوائية وهي ثالث أكبر مصدر للكربوهيدرات في العالم حيث يستخرج من جذورها دقيق نشوي (المترجم).

(9) الشخصية الروائية الشهيرة، روبنسون كروزويه، القريبة من شخصية حي ابن يقظان، الطفل المولود فوق جزيرة، الذي يُقبل على اكتشاف العالم وحده، من دون دليل أو كتاب (المترجم).

(10) نجمة حسب الروزنامة الهندوسية (المترجم).

- بلى، لا أم لي. قتلتُها وهي تلدني. إلى ذلك، أنا يتيمة القلب.

كنا، شيام وأنا، ننظر إليها من دون أن نفهمها. كانت تقول أحيانا أشياء تتعدى قدرتنا على الفهم، ما كان يتركنا في الخلف البعيد، عند هذا الأثر الغامض الذي كان يتبعها أينما كانت. كانت تَكبرنا بقليل، ولهذا كانت تبدو في نظرنا أكثر زخما وسرية. شيام قال لي بأنها نصف مجنونة، لكنني ما كنت أعتقد بما كان يقول. لم أعتقد بهذا، على الأقل، حتى اليوم الذي وقع فيه نظرنا على الخنازير البنِّية.

كنا دوما بالمرصاد، في الغابة. كان يعيش فيها عددٌ هائل من الخنازير البرية، التي كانت تتناسل بسرعة مقلقة. لمّا يبلغنا صوت تلك الحيوانات الضخمة، وهي تشقُّ لها سبيلا في الدغل، طاحنة الأجمات، والأعشاب، والأغصان، كنا نصعد إلى عالي أغصان أحد الأشجار، حيث نصبح بمأمن من تقدمها الوحشي. ذات يوم، وكنا فيه جاثمين في عالي شجرة، شاهدنا، على مبعدة منا، أحد الصيادين المخالفِين، وهو يتفقد مصيدة أرانب برية. كان منحنيا على الأرنب الذي أمسكَ به، ثم لوى رقبتَه، وهو يرتجف، مرفقا ذلك بابتسامته القبيحة. كان منصرفا تماما لهذا الفعل إلى درجة أنه لم يسمع الكتلة الهائجة السوداء الواصلة خلفه مثل زوبعة. في اللحظة الأخيرة، شعرَ بما هو هاجمٌ عليه، فأدار ظهره مندهشا ومرعوبا. الضجيج الرخو الذي تُحدثُه الأقدام الظلفاء - كانت أقرب إلى عشرين بهيمة، يتقدمها حيوانُها القوي والهائل - والحشرجات الصامتة في حناجرها، وحفيف الأوراق التي تُبعدها عن طريقها في سباقها السريع والقوي، كلُّ هذا حلَّ في وعيها، في ثانية. في الثانية التي تلتْ - من دون أن تُوقف المجموعة الهائجة سباقها - لم يعد هناك سوى كتلة لزجة، مختلطة بأعشاب عالية حمراء، ذات أزهار من العندم الهندي، مع حشرات مطحونة معه في الوقت ذاته.

كنتُ أنظر إلى كتلته مبهورة. ما كنتُ قد أدركت حينها حجم المأساة. ثم بلغني أنين ضعيف وحاد، مثل نشيد غنائي، لكنه بالغ الحزن، نشيد عصفور أو حيوان من حيوانات الغابة، الذي يأتي من الأغصان الضخمة لشجرة الإهليلج[11]. يا للمفاجأة! أديرُ ظهري في الوقت عينه مع شيام، وأرى فاسنتي تُطلق هذا الأنين، بعيدة قليلا عنا. كان وجهها مغطى بالدموع والقسمات الحمراء، مثل خدوش، فيما تتهادى ببطء فوق الغصن.

كانت أظفارها حمراء من الدم، ومن نتف اللحم المنتزَعة.

ارتعبنا من هذا المشهد. إلا أنه بالنسبة إلى أهل القرية، الذين التحقوا بنا للبحث عن جسم الصياد، لم يكن سوى علامة دالة على خصوصية فاسنتي، وعلى مصيرها المرتبط بتلك النجمة، ما كان يصعب علينا الاقتناع به.

كانت، في ظروف أخرى، طفلة عادية. تضحك، تبكي، تتخاصم مع غيرها، ولها نزوات وتصرفات مزاجية، مثلنا تماما. أما الفارق الوحيد، فكان أنها جميلة، من دون أي عيب جسماني تقريبا. بالنسبة لنا، كان هذا طبيعيا، وعرفناه طوال حياتنا. لم أتنبه إلى جمالها، إلا في اليوم الذي قالت فيه أمي للخال سنجيفا، وهي تنظر إليها: ليس جيدا لفتاة أن تكون بهذا الجمال. هزَّ رأسه بعد أن فهمَ ما كانت تريد أن تقول له، لأنها، بهذا الإعلان، كانت تُصدر بيانا عن هذا المصير الذي لا يهبُ أي شيء مجانا، والذي تُخفي هباته، الجزيلة أحيانا، بندا سريا بما يخفف من هذه الهبات ويعدِّلها. إذ حين يكون لنا جمال فاسنتي، يكون سعرُه، على ما يبدو، أعلى، والغرامة مرتفعة.

لعلهما، لهذا السبب، كانا يعيشان منعزلَين، الخال سنجيفا وهي،

(11) شجرة معروفة في الهند، لها ثمر مثل حب الصنوبر (المترجم).

متخفِّيين، جاهدَين في التملص من مراقبة داهمة. كان للخال سنجيفا حزنٌ دائم في قلب نظرته.

كان يحب اعتدالي، الذي كان يتعاكس، بشكل غريب، مع توقد فاسنتي، مع ضحكاتها الحادة، وطلتِها الفائرة بشكل فاقع.

كانت فرحة، متولهة، مشاكسة وجميلة للغاية. كانت، بشكل خاص، أكيدة من نفسها، تنصرف من دون إبطاء إلى كل ما تحب؛ وكلُّ ما كانت تقوم به، كانت تقوم به من دون اعتدال. لعلنا كنا نحبها لهذا السبب، شيام وأنا، وكنا نخشاها أيضا لهذا السبب، إذ كان يتبدى، في قلب المراهقة، روح امرأة-طفلة، عميقة للغاية، وبريئة للغاية، في الوقت عينه، هي التي ما كانت تعرف حقيقة أمرها، وكنا نعرفها بشكل أقل. مخلوقة مستعبَدة لعطش سري ومُسكر، والذي لا يتوقف إلا عندما تكون قد شفتْ غليلها.

* * *

الرطوبة تغمر قدمَيَّ. خفّاش، غريب، يحلق فوقي. الليل في الحديقة، وبقعة الضوء المستطيلة إزائي تشير إلى أن ديف لا يزال يعمل. كان كل شيء يحيا، الحشرات، العصافير. كلٌّ يعمل من أجل شيء، لهدف ما. نجمة شيترا معلقة أمامي، حيث علَّمتني فاسنتي أن أجدها، وكانت لا تزال تشع. ذلك أنها كانت تنير ولادات الأرامل واليتامى بخيوط من فضة. وماذا عن فاسنتي؟ ألا تزال هنا، حيثما كانت، متبوعة بعلامة شيترا؟ أتراني جالسة هنا، أتراها تفكر في كوني سأجتاز مثلها الامتحان الذي اجتازتْه، وسأجد فيه موتي؟

الضوء على النافذة ينطفئ، باب ينفتح، ديف يناديني. كان صوته، على أي حال، يتلفظ باسمِي بشكل أليف في هذه الليلة، التي تنيرها عين شيترا اللعينة، ناقلا رسالة أمان. لكنني ما عدت أقوى على الاحتماء فيها.

5

ينهمر المطر هذا الصباح مثلما ينهمر في المنبسطات العالية، وهو الصبُّ البارد الذي لا ينقطع، والذي ينشر غبارا فوق زجاج السيارة، ثم يغمره تماما، فجأة، من دون إنذار. تبدو الغيوم كما لو أنها نزلت على المدينة، لكنه ليس سوى ضباب الصباح، الذي سيتبدد بعد وقت، حين يكون قد أنهى عمله التدميري. حتى البنايات، باتت لها هيئة رخوة، قابلة لأن تنحل.

لا أتعرف إلى أحد، لا أنتبه إلى تتابع الشوارع، فيما كنا نتجه، ديف وأنا، صوب العيادة.

لا أفكر في أي شيء. يغدو هذا سهلا أكثر فأكثر، ما دام أن هناك فجوة في رأسي. أما ديف، فلا أعرف تعبيرات وجهه، اليوم، بعد أن ماتت اللغات السرية بيننا إثر تدهور حالة وِين الصحية. بدل أن يجمعنا مرضُه، تمزقنا كلانا. لا أرى غير وجه غضبه، ويدَيه الكبيرتَين المنقبضتَين، ومقود السيارة ومحرِّك السرعة؛ فيه طاقة عدوانية تتجمع في عينَيه السوداوَين والعميقتَين، مثل ثقب من دون أي نظرة، فلا أجد انعكاس وجهي المتجمد.

وِين، في الغرفة، بين الوعي وغياب الوعي. كانت عيناه متفتحتَين نصف فتحة، همس إذ رآني: ماما؟ أهذا أنت؟ اقتربَ ديف عندها، قائلا

بصوته القوي للغاية:

- كلانا، هنا، حبيبي؛ كلُّ شيء على ما يرام.

وِين يبحث عني.. وضعَ الرأس على ركبتيَّ. أخذ جانبَ ثوب «الساري»(12) القريب منه، وأداره حول يده، مثلما كان يفعل لمّا كان صغيرا للغاية، وقبل أن ينام. لا أجرؤ حتى على لمس جسده الهش، الذي يكاد يتداعى عند الملامسة. يأخذ بالساري إلى وجهه، أظن أنه يشمُّه، ويتشبع من رائحته.

ثم غاب من جديد. أعرف أنهم وصفوا له أنواعا من الأدوية المسكِّنَة، وهو ما جعلَهم لا يتركونني إلى جانبه، مساء أمس. إلا أن الارتعاب القديم يستبدُّ بي ما إن أره يفقد الوعي، هاربا إلى أمكنة لا أقوى على اللحاق به إليها، إلى تلك الدروب العرْضية القصيرة التي يسلكها المرضى.

كانت لديف حركة سريعة وموقَّعة، كما لو أنه يمسح عينَيه؛ ثم خرج من الغرفة، ربما للبحث عن الطبيب.

بقيتُ وحيدة. وحيدة مع الرعب الجليدي المتراكم في هذه الغرفة، فيما بدا لي أن وِين ليس وحده في الغرفة، بل يحيط به مستيقظا عددٌ من الشكاوى.

ممرضة تدخل، تتردد لحظة بعد أن تقع عليَّ. ترتسم فوق وجهها ابتسامة صغيرة مشفِقة.

- من المؤلم رؤيته على هذه الحال، أنا أعرف هذا، قالت لي.

تقترب مني، واضعة يدها على كتفي. قصيرة القامة، على شيء من السمنة، ضيقة في لباسها المهني المصطنع. كانت عيناها كبيرتَين بفعل نظارتَيها السميكتين.

يدها على كتفي تحمل معها روائح غريبة، ولطفا غريبا.

---

(12) الثوب الهندي المعروف الملفوف بقطعة قماش واحدة على الجسم (المترجم).

- ستجري الأمور على خير، أنا متأكدة من ذلك، قالت لي. الطبيب يعتني به للغاية. إنه شبهك، أليس كذلك؟ إنه جميل، مثلك..

أهزّ رأسي، وأبتسم تقديرا لما قالت؛ أفضّل أيضا شفقتها البالية، ولكن الأمينة، مثل شيء قديم اعتدنا عليه، وعلى تأوهات الأهل الباكية أثناء زيارة المرضى.

مضت الممرضة من دون أن توقد فيّ أي رغبة في الأمل أو في البقاء على قيد الحياة.

أنا، حاليّا، في أرض الغياب هذه، في المنطقة المجهولة المحاطة بالأسلاك الشائكة.

إن أضع قدمي خارج الحقل، فسأتخلص من كل شيء. ما دام أن وِين متشبث بالحياة.. ما دام أن الخيط المتين شديد، وأن هناك كفاحا، ولو ضئيلا، ضد الموت يخاتل بعدُ عند حدود فمه؛ ما دام أنه يتعرف إليّ، ويتوصل إلى أن يقرأ في حضوري، وأن يجد فيه ضمانة سرية بالحياة، فإنني متشبثة بهذا بدوري.

قلما وعيتُ بالاجتماع الشديد بين كائنَين من جسم واحد. ما كنت أعرف أنه سيكون هناك لحظة تستعيد فيها جميع شبكات الخلايا الحية (المبنية مع صبر الزمن المدهش، ومع تاريخ الإنسانية الغامض)، من قيمتها القديمة، جميع الصلات القائمة خلال شهور التكوين التسعة، وتستفيق حركتها السرية، وتعمل من جديد الآن، سأتأكد من أن جسدَينا ملتحمان، وأنك ستتشبث بالحياة، يا وِين.. ستكبر، وستكون فخورا، بجبهة عالية، وبعينَين ساحرتين؛ ستكون شرها على الأفكار ومشبَعا بها؛ ستصبح رجلا، وستكون قد ذقتَ، في الوقت عينه، الموت كما الحياة.. سأترك لكَ أساطيرك عن الاستقلال، لأن هذه هي ما تنفع به الأمهات.

لنا أن نكافح، أن نعارك، أن نتشبث. فنحن قادرون على كل شيء.

لكنني، في جهة من نفسي، أستمع إلى ديف يسأل بنوع من السخرية البشعة: أنحن قادرون على كل شيء فعلا؟ علي أن أواجه، قريبا، هذا الامتحان، وربما الفشل. يدفعني ديف إلى الوقوف أمام مرآة تقلبُ الصور، ما يعطيني وجها مرعبا. لستُ مثله؛ ليست عندي تلك الثقة المطلقة التي تبدد الشك. فأنا أنتسب إلى عالم لا يتوانى عن خلق صور مزيدة للغيب، لكن هذا العالم بات غريبا في ناظري.

تراهم يبحثون عنه بواسطة الصلوات، وببعض الأفعال. منذ الطفولة، يَقبلون بموت الجسد، وبالتضحية الدينية. تراهم يمضون بعيدا حتى الحدود القصوى من أجل استحصالِ جوابٍ. تراهم يطلبون الجواب برؤيا متحصِّلة من الشطح، بعذاب ليس بعذاب، بجراح لا تسيل أبدا، بأقدام لا تحترق أبدا، بحليب لا يحمض أبدا: كل شيء قد كُتب في أغاني الأرواح التي تتردد حولهم، في النظرات السوداء المنقلبة، في الضحكات والدموع المنتشية، في الأجساد المشكوكة بالإبر التي تلمع تحت ضوء الشمس. في كل تظاهرة من هذه، يزداد إيمانهم، فيما تزداد رغبتهم في بلوغ المنتهى، بل في النظر إليه ولو بشكل خفيف. إنهم مستعدون لعيش الموت الصغير من جديد، هذا الموت الذي يتفتح فيهم، من دون توقف.

كما يتعرفون إلى الطرق التي يَعبرها القديسون والورعون، وإلى غذاءِ النجوم الذي يحملونه في شفاههم. هذا ما يميزهم عن غيرهم: إنه الإيمان، السعيد والمليء بالعذابات. إنه يدفع بهم بعيدا عن أنفسهم؛ حتى لو كانوا أناسا بسطاء، عاديين للغاية، فإن التعبير عن إيمانهم يجعل منهم أصحاب طرقٍ وإشراقات.

أنتبهُ، اليوم، وأنا جالسة قرب وِين، وكتفاي مهدودتان، وفمي ملتوٍ من المرارة، إلى أي حد انفصلتُ عنهم. فأنا لست منهم. افترقتُ عنهم بقوة التشدد التي للمراهقين، حين يصيبهم الشك.

حينما ولد وِين، اخترتُ له اسما بسيطا للغاية، من دون تعالقات دينية أو عرقية. يتوجب أن ينتمي وِين إلى الكون. وكنتُ أعتقد بأنه سيتملص من إرثٍ ثقيل من الورع. كما لو أن في المقدور التملص من هذه الوساوس..

الظلال تنعس من جديد في وجه وِين؛ وديف اختفى. الممرضة كذلك. الصمت وحده يسكن العيادة. ثم تصلنا وشوشات ماءٍ بعيدة، وقعُ عربة الأطفال فوق البلاط النظيف، والشكوى المخنوقة لرجل يتنكّر لعذابه. المصل يتمدد بنعومة في شرايين وِين. الإبرة تغرز ذراعه الصغير الأزرق. السائل يتلوى في جسمه، مغذيا له، رابطا إياه بالحياة. هذه الحياة الشديدة القرب والشديدة الموت، انفجارٌ أصفر على حدود القلب، ما يخضعُه ويخترقه بالتناوب.

هناك، استعاد الرجل شكواه المخجلة. لا أريد الاستماع إليه. خرجتُ من دون أن أنتظر ديف.

اتجهتُ بصورة لا إرادية إلى الحديقة القريبة. ربما لأنني اتجهتُ إليه في كثير من المرات مع وِين، ولأنني، مثل الكلب الذي يتشمم أثرا يعرفه، قد أجد فيه أثرا لابني.

الأسماك التي كان يتبينها في وسط المستنقع باتت تكبر بحسب مخيلته. كان مقتنعا تمام الاقتناع بأن دلفينا كبيرا كان ينام هناك، في العمق، وكان يطمح إلى إيقاظه، ذات يوم، من نومه الأبدي. كنت قد وعدتُه بأنني سأروي على مسامعه قصة موبي ديك[13]. ولكن في أثناء ذلك.. أثناء ذلك، تيارات من الحقد، ورياح من سوء الطالع اتجهتْ صوبنا، ولم يكن ذلك مرضُ وِين وحده، والليالي البيضاء، من دون نوم، التي كانت تدمرنا شيئا

(13) رواية شهيرة، بالإنكليزية، لهيرمان ملفيل الأميركي، صدرت في القرن التاسع عشر، وتدور حول صراع مأساوي بين حوت وإنسان، متوسلة من ذلك التأمل في الوضع البشري وعلاقته بالوجود (المترجم).

فشيئا. هذه «النحن»، التي تشملنا، باتت عرضة للمراجعة من قبل عدد هائل من الكلمات ومن الصمت. إن قسما مني بات معلقا في الوقت الحاضر، من دون وطن، ويتيما من كل شيء.

كنت أرى نفسي عائمة مثل شيء مجنَّح وشفاف، يُمسك بها فقط خيطُ انتماء دقيق. مِزَقٌ سماوية تُخلي أمكنتها حولي، وجرعات من مطر لا تترك أي أثر مادي، فيما كنت، دوما، أتوه بحثا عن ذكرى مدونةٍ في وسط ورقة، أو مطمورةٍ في عش من الوحل.

كان شَعري منسدلا حولي. ولكن، بعد القشعريرة الأولى، بات النفور المفاجئ والغرائزي من الشعور بالرطوبة فوق العنق، وفوق عظم الكتف، قريبا من التعود، بل من اعتباره ناعما وطريفا. كانت حبات المطر ناعمة وخفيفة مثل أطراف الأصابع إذ تلامس جلدي.

فاسنتي كانت تحب المطر أيضا. كانت تشع، منزلقة وسمراء، مثل سمكة في مستنقع. كانت تهبُ جسمها للمطر، وتصبح صورة لشهوانية قصيرة وشديدة؛ لا هي روح، ولا هي حضور، كانت فقط جسدا في عيد. كانت تنسى أننا هنا لرؤيتها، شيام وأنا. كنا نتتبع أبسط حركاتها، عندما تلوي ذراعها المنحني مثل غصن، عندما يغدو شَعرها أشبه بمخلوقات لينة، عندما تنتهي عينها إلى أن تكون قمرا أسود في لعبه السريع والحذر.

كانت تعرف أشياء مذهلة؛ أكثر فأكثر جنونا. لعلها كانت تختلقها، أثناء ألعابنا التي تحولت إلى ألعاب جريئة، مجنونة أكثر فأكثر. كنا، شيام وأنا، هادئَين كعادتنا، وأسرى تحت إمرتها، ما إن نصل إلى «كونستانس». كنا نخضع لقوتها السحرية، وكانت، هي العارفة بسلطتها علينا، تقودنا أبعد في هذه المملكة الخصوصية التي بنتْها في وحدتها.

بالنسبة إلينا، كانتا، هي و«كونستانس»، مشدودتين من دون فكاك بينهما. كانت تفتح بابا مقفلا في عمق أنفسنا، بابا مغلقا دوما إذ نكون

في بيتنا، في المناخ المنظم بدقة، والخاص بعائلتنا وبعاداتها، والمبني وفق ساعات وانشغالات. كنا نتقبل هذا الأسر القاسي، لأننا كنا نعلم أن هناك، في البعيد، قرية صغيرة تنتظرنا، بوعودها اللامتناهية من شمس وعطور، من شدو العصافير وغناء الأشجار، وأن هناك رفيقة تنتظرنا، وأختا هي أخرى عنا، وتتمتع بكل الحريات. أختا تنمو مثل عشبة مجنونة، وكان والدها يترك لها حرية العدْو في الريف. لأنه كان يعلم حقَّ العلم أنه غير قادر، حتى لو أراد ذلك، على وضع حدٍّ لجموح هذه الفتاة، إذ كانت فريدة، ولا اسم لها. كانت «كونستانس-لا-غيتي».

كيف لي أن أنسى الأيام التي أمضيتُها هناك؟ الاستيقاظ صباحا مع غناء العصافير الذي يبلغنا عبر النافذة المفتوحة، وأشجار الورد المتسللة، التي تخدش بقوةٍ الستائرَ الخضراء من أجل إبلاغنا لزوم الخروج. خريرُ ماء قريب، وروائحُ الأرض، الفاترة، المبهِّرة، وأخلاطُ النعناع والزعتر، الكزبرةُ والكافور، تتعالى بنعومة، مركَّزة أكثر فأكثر، بقدر ما كانت الشمس تعلو وتبعث فيها الدفء. هكذا تصبح هذه كلها سائلة وضاجّة مثل خمور الموز التي يصنعها القرويون في مكان غير بعيد، والتي تتحول رائحتُها الخافقة إلى نداء حار في الجسم.

الزنابير تشرع في الأزيز بشراهة.

أولاد القرية يتسلون بالبحث عن أعشاشها، وبطردِها من الأشجار. ثم يقتلون اليرقات[14] الموجودة فيها، ويجمعون هذه الأعشاش غنائمَ حرب. كنا نعرف ولدا صغيرا، رامو، كان يمتلك دزينة منها. لكن غنيمته الأخيرة كلفتْه الكثير، لأن الزنابير هاجمتْه بقسوة، وأبقتْ فوق وجهه علامات من وخزاتها، مثل تحذير دائم، كما لو أنه تعرَّض لهجوم الجدري الخبيث للغاية.

(14) أي أشكال الحشرات والحيوانات الانتقالية، قبل أن تكتمل وتبلغ شكلها النهائي (المترجم).

كانت هناك أيام، خلال فصل قطع الأشجار، يكون فيها الهواء معطّرًا بفعل انبعاثِ روائحِ عصيرِ قصب السكر المطحون، أي السائل السكري الموسوم «فنكورين»[15]، الذي كان يخفف عنا أيام الحرارة المرتفعة؛ فيما تمضي النساء إلى المطحنة لجلب قناني شراب قصب السكر، ذلك السائل الأسود والسميك، الذي كن يطهونه، ثم يضعنه تحت أنوار الشمس حتى يصبح كعكة قاسية ومقرمشة، والتي كنا نسميها: «بالي». كانت أيامُ قطع الأشجار، التي تبعثرُها أشغالُ المصنع وحدها، توقد حماستنا. رجالٌ ونساء كانوا يعملون بكد وتركيز، متبرجين بثيابهم الغريبة والمتباينة، وبأحذيتهم وقفّازاتهم «الكاوتشوكية»، بعد أن وضعوا فوق رؤوسهم خِرَقا ملفوفة، شكّوا فيها مناجلهم. كانوا يقطعون قصب السكر بسرعة منتظمة وآلية، من دون أن يلتفتوا، لا إلى أمامهم ولا إلى خلفهم. إذ كان هدفُهم قطعَ الأكثر من قصب السكر، للفوز بمال مزيد في نهاية الأسبوع. وكان موسم القطع فرصة متاحة لزيادة مردودهم المالي المتدني، ولأكل المزيد من اللحم، ولإلباس أطفالهم ثيابا جديدة، ولوضعِ نقود قليلة على جنب للأيام التي يتضورون فيها جوعا، والتي يقضونها من دون عمل يذكر بين فصل وآخر، كانوا، كلهم، منتفخِين بالهيجان السعيد الذي لا يعدو كونه تحديا للحياة نفسها، فيتشبثون بحظوظهم بأيديهم المجعدة، مجددين معركتهم بمدفعية من الأمل والثقة. كانوا، في ذلك، يتناسون أن لهم شفاها مشققة، وأن أسنانهم مسوَسة بفعل الأيام السوداء. كانوا يغنون، ويضحكون، ويتألقون. كانوا مطمورين في ذلك المصنع الواسع والظالم، الذي يطالبهم بالمزيد، ما يجعلهم، قبل نهاية الحصاد، مستنفَدين ومنهكِين، شاحبين ونحيلين. هكذا ينتهون متلفين من أعمالهم، ومن حماسهم الوسواسي الذي حرّكهم طوال هذه الشهور.

---

(15) اسم آلة عصر قصب السكر في هذه المنطقة (المترجم)

كانت فاسنتي تنظر إليهم رائحين غادين، وهي تمضغ قصبة سكر، وتهزُّ رأسها بشكل عنيف.

- عليهم أن يعملوا، أن يعملوا دوما، مثل حيوانات قطيع. يُستحسن الموت بدل العيش بهذا الشكل! (كانت تتحدث عن الموت في أحوال كثيرة). لكما، أنتما الاثنان، حظوظ أخرى في الحياة..

يبتسم شيام:

- أنا، سأصبح طيَّارا.

- وأنا، طبيبة، قلتُ.

كانت تبتسم لنا كما لو أنها تتوجه إلى أطفال.

- أما أنا، أتعلمون من سأكون؟

- لا، قلنا لها.

- سأكون زوجة أحد حارثي الأرض، بثياب «الجيني»، وبمنجلي الذي أشكُّه في عصبة رأسي!

كنا ننفجر من الضحك، إذ نراها تقلد مشية القرويات الخاصة بهن، برأسها العالي والمستقيم، بعينَيها الكبيرتين المتحركتين، وبوركَيها المتراقصين. ثم كانت تشرع في التحدث بلغة «بهوجبوري»، لغة أهل الريف الضاجة، بادئة جميع جُملها بتلفظ الحروف ذاتها، التي لا تعني أي شيء.

هذا ما كان يبدو مستحيلا لنا، إذ لا نقوى على مجاراتها. في الفتور الذي يشارك أيامنا، ورائحة القش الطيبة التي نديرها في أفواهنا، المحاطة بأزهار مجنحة كما لو أنها من العصافير، من أجل أن تفوز فاسنتي، يوما ما، بهذا المصير. كانت جميلة للغاية، ومختلفة للغاية عن الآخرين، كانت جنِّيَّة وسط هؤلاء الحارثين الفظين والخشنين، بحيث يستحيل انتسابهم إلى الكوكب نفسه. حيثما كانت تضع قدميها، كان شيءٌ غنيٌّ وصاخب يصيب الأعشاب من دون أي شك. كان يبدو، أحيانا، على صغار الببغاء

الخضر، التي تعيش بين هذه الغابات، كما لو أنها تقلد ضحكتها؛ وكانت ضحكتها تتنقل من شجرة إلى أخرى، من أجمة إلى غيرها، في عدد غير متناهٍ من الأصداء المتشابهة، ولكن الممتزجة بالحزن، بطريقة خفية.

لكنها، هي، كانت مقتنعة بمصيرها هذا. كانت ترى تماما إمكان حدوثه. فقد كان هناك - حتى لو أنها كانت تُضحكنا بمجرد قيامها بحركات التقليد - في عمق صوتها، ارتجافةٌ، خدشٌ عميق؛ وكانت تبدو، في نظراتها، الآثار الأولى لليأس، وفي جسمها المتراقص بشكل غريب ألفةُ التصرف. كانت تدير وجهها صوبنا، وتقول لي بسخرية جارحة للغاية:

- سأصير زوجةَ حارثٍ، لكنك، أنتِ، يا أنجالي، ستكونين تعيسة أبدية. ستكونين عبْدة الرجال.

أما لشيام، فكانت توشوشه، بنظرة لا تلبث أن تصبح ناعمة:

- لو تعلقَ الأمر بي، يا شيام، فستكون سعيدا مع امرأة ستحبُّك أكثر من حياتها، ذلك أنك تستحق الوفاء كله.

كان يبدو عليها كما لو أنها ترى النار تحيط بها، وكانت تتعلق بصورة مزيدة بشيام وبأبيه. كان الخال سنجيفا يحبُّها بطريقة لافتة للغاية، كما لو أنه يشعر بأنها مهدَّدة، وأن لحظاتها معدودة. لعله كان يتوقع المكافأة من قناعة الهندوس بالقدرية، التي تضع كلَّ فعل، وكلَّ حدث، في فقرته من الأسباب والنتائج. كلُّ شيء يعود، حسب الخال، إلى انتظام النوع في حسابات القدر، أي ما يخص الإنسان، وأوجه شجاعته، وأوجه جبنه، وحقيقته، ووهمه. إنه مثل الشجرة التي لا تتخلص أبدا من جذورها، ولا من أغصانها، مثل النهار الذي يرتكز إلى الليلة التي سبقته، وهو ما سيولد ليالي أخرى.

كان الخال سنجيفا يحتفظ دوما في نفسه بذكرى والده، مثل خدش بليغ في القلب لا يُمحى. أما سلسلة الاستغفار الطويلة، التي كانت تضيق

على خالي أكثر فأكثر، فقد بدأت، بالنسبة إليه، مع والده، ولها أن تنتهي -كما كان يتمناه- مع فاسنتي.

جدي، والدُ الخال سنجيفا وأمي، كان قد قَدِم من الهند في مطالع القرن (العشرين)، فوق إحدى السفن الأخيرة التي جلبتْ العمال «الملتزمين» إلى الجزيرة. كانت ظروف السفر رهيبة، وقد كانت أدهى القناعة بأنهم لن يستطيعوا أبدا العودة إلى الوراء، ولا استعادةَ المسار بالعكس.

اجتازوا كلُّهم «الكالا باني»[16]، المياه السوداء في المحيط. كانوا يدركون أنهم باتوا في حكم الموتى من قبل الذين ظلوا في الهند من طائفتهم، وأنه جرى إحياء طقوس الموتى بأسمائهم. ما بقي لهم، لإنقاذهم، هو الصلاة وحدها. كان جدي يردد مقاطع من «الكيتا»[17]، وكانوا يستمعون إليه بعيون منتفخة، بجلبة، لا يحسنون التعبير عنها بالكلمات. كان الواحد منهم يتساند مع الآخرين عاقدين صلات أكثر متانة من تلك التي عرفوها مع عائلاتهم وأصدقائهم.

في الرحلة، قضى أكثر من عشرة من «الكوليز»[18]، وأصابتْهم كلهم مشكلات صحية ونفسية بعد تعرضهم للإسهال وسوء التغذية، لكنهم بدوا من القوة، في نهاية الرحلة، بحيث اشترطوا العمل معا في الملكية الزراعية الواحدة. رفض مالكو المؤسسات الخاصة بالسُّكر هذا الطلب، لكنهم خافوا من أن يُقدم هؤلاء الـ «جاهاشي بهاي»، أي أُخوة السفينة، على العصيان، فيما لو ظلوا معا. اقتعدَ جدي الأرض، وأعلنَ إضرابا عن الطعام. تجمعَ سكان العاصمة لرؤية هذا الرجل الهزيل، ذي السحنة

(16) تشير «المياه السوداء» إلى أحد محرمات الثقافة الهندوسية، وهو عدم جواز اجتياز المياه السوداء أو المعتمة في المحيط الهندي (المترجم).

(17) هي ما يزيد على 700 بيت من الشعر الهندوسي، الموضوعة بالسنسكريتية، والتي تعود إلى ملحمة «المهابهاراتا» (المترجم).

(18) يعود أصل اللفظ إلى الصينية، ويشير، في القرن التاسع عشر، إلى العمال الزراعيين من أصول آسيوية (المترجم).

القاتمة والنظرةِ الصافية، الذي تحدى السلطات فوق جزيرة موريس بهذه الصورة. كما أن بعض العمال، وقد أوقدَ حماستَهم هذا التصرفُ، وضعوا يافطات من ورق، وراحوا يردِّدون بعض الشعارات. هذا ما دفعَ مديري المؤسسة الزراعية، مخافة حصول التمرد، إلى الخضوع، وجرى بالتالي إسكان «أُخوة السفينة» في الملكية الزراعية عينها، في «كونستانس-لا-غيتي»..

اجتازوا معا الكثير من الامتحانات ومن طقوس العبور. واكتسبوا منها التجاعيد عينها، والنظرات عينها، مشدودين بقوة إلى بعضهم، بعد أن صهرتْهم، موحَّدين مثل أطفال وحَّدَهم الخوف. هكذا ما عرفوا صداقات غير هذه، ولا أمانة في العلاقات غيرها. كانوا يتجمَّعون في المساء، ويعيشون من جديد ما بات بالنسبة إليهم وسواسا أكيدا: السفر. يستمعون من جديد إلى هدير الموج العالي الذي يقلقهم، وضربات الأمواج وهي تصطفق على مقدمة السفينة، ويشعرون بتهاديها وبدوار البحر، وبرائحة المرارة والبول في قاع السفينة، فيما يتمتعون بالجنة الزرقاء فوق سطح السفينة، أثناء خروجهم اليومي من أجل تنشُّق الهواء. أما النجوم، التي كانوا يلمحونها من خلال بعض الفُرجات، فكانت تبدو لهم غريبة، في غير أمكنتها، كما لو أنها تراقب عن بعد هذه الرحلة المنعزلة أكثر فأكثر، والتي هي مدعاة لدوار شديد بين ضجيج المياه وثبات المسار.

انتهى جدي إلى أن يكون، كما فوق السفينة، قائدَهم وسندَهم. كان ينجح في استثارة حميَّتِهم؛ وكان يجعلهم حقيقيين. قام بعدة إضرابات عن الطعام للحصول على ظروف أفضل. في إضرابه الثالث، تركوه صائما خلال خمسة عشر يوما؛ وما خضعوا لطلباته، إلا بعد أن هددَهم بالاشتعال حيا. أوقفَ إضرابه منهك القوى، بنظرات ضائعة ومجنونة. كما تزايد بقوة كبيرة حقدُه للبيض، وحبُّه لـ «أُخوة السفينة». بات أشبه بقديس

محلي، من أصحاب الرؤى الذي تصيبه نوبات من الكَرم، ومن المغالاة، في تصرفات حاقدة وطالبة لإحقاق العدل.

تزوج بعد سنوات على وصوله، من امرأة شابة، أنجبتْ له طفلين. أمي، الكبيرة بينهما، استحصلت من جدي على عبادة تامة لها. أما الخال، سنجيفا، فقد حظي بداية بعطف والده، لكنه تحول، بعد إضراب جدي عن الطعام ووقوعه في الجنون، إلى شخص مكروه ومرفوض، من دون أن يُفهم سبب ذلك.

ولد الخال سنجيفا في الجزيرة، وهو أول من حمل الاسم ضمن أجيال سوف تحمله بدورها في المستقبل.

كان العجوز يسامر «أخوة السفينة» بحديث الحب واللطف، وكانوا ينصتون إليه، مشدوهين إلى شفتيه، دون أن ينتبهوا إلى عينيه الزائغتين، ولا إلى فمه المرتعش من دون سبب. وفي اللحظة التالية كان يلتقط عصاه المصنوعة من الأسل، ضاربا ابنه من دون إنذار، شاتما إياه بأقذع المسبّات، ما كان يرعب العائلة ببذاءتها. كانوا يهرعون إلى إقفال النوافذ، وإلى شدّ الستائر، مخافة الكشف عن تدهور حالته. لكن الكلمات كانت تعلق على الجدران، وفي السقف، من دون أن تتساقط في النسيان. فقد كانت للكلمات السيئة قوة ما جعلَتها أبدية.

كان الخال يهرب، بعد ذلك، ويختفي لعدة أيام، مختبئا بين الأشجار أو في الجبل، ملتهما ثمار العنبات البرية، إلى أن يتمَّ العثور عليه، شبه ميت. كانت سلوكياته تثير رعب أهل القرية، لكن «أُخوة السفينة» ما كانوا يرون شيئا من هذا، ما دام أنهم كانوا محصَّنين وراء ذاكراتهم الموقوتة، في رحلاتهم داخل نفوسهم، غير راغبين في إيذاء صورة قديسهم.

ينغلق سنجيفا على نفسه في الصمت. لا يتكلم مع أحد، رافضا إشارات العطف عليه، وكلمات المواساة، ومؤازرة الأم الخائفة. بهذه الطريقة

كان يتحدى النسيان والغفران. كان يزرع الأرض إلى جانب أمه بعناد غاضب، متناسيا الآلام التي كانت تنشب في جسمه، وفي جراحات يدَيه. لم يكن يَظهر عليه أبدا العطش إلى شفقة الضعفاء. كان يفضِّل رفضَ كلِّ عرضٍ بإصلاح الضرر، بدل التخفف من حقد غير مبرر، ومن المجزرة التي أصابت طفولته. لمّا بلغ السادسة عشرة من عمره، مضى من دون أي تفسير، ومن دون أن يترك عنوانا.

اختفى على الفور، عاد العجوز إلى سريره، باشرَ إضرابا أخيرا عن الطعام من دون أن يكون مفيدا، ثم توفي بعد ذلك، وهو يُتَمْتم اسم ابنه، مثقلا عليه الحِمل الأخير، أي مسؤولية موته.

مع توالي الأيام، جميع «أُخوة السفينة» مضوا وماتوا، بعد أن افتقدوا سبب عيشهم. ما عادوا يجدون أي معنى لوجودهم: القرية تخطتهم، وباتوا أشبه بالأواني القديمة المهزوزة، بأشباح من زمن مضى، باقين على قيد الحياة بفضل أعجوبة من المقاومة، رافضين قبول انتفاء أسباب وجودهم.

حينما ماتوا كلهم، وجرى نسيانهم، عاد سنجيفا. كانت تصاحبه امرأة شابة. وبقي بينه وبين عائلته أشبه بظل والده.

بنى لنفسه بيتا صغيرا في الوادي، وفيه وُلدت فاسنتي، بين أنوار «كونستانس-لا-غيتي» كلها، وأحزانها كلها. في هذه القرية كان للمطر طعم الشمس، المختلف عن المطر الذي ينهمر الآن، باردا ومن دون قوة، ما جعلني أعود إلى حاضر لا وعدَ فيه، وله رائحة الغياب.

بات لازما أن أعود، فالحديقة مغطاة بالضباب، فيما النباتات تشير بضجيجها إلى دلالات حياة، مثل ارتجافات متصلة تبثُّ رسائل لطفٍ في النهار الأعمى. اضطرت العصافير إلى الاحتماء في أعشاشها، أو في عمق الغصون، ذلك أننا لا نسمع أصواتها. أنا وحيدة الآن، مثل جزيرة في قاع الجزيرة، تغمرني الحديقة، فأخالني شيئا من شجرة، شيئا من ورقة، أما

السائل الجاري في عروقي فخفيف، وواضح للعيان بحيث لا يكون دما. كنت أرغبُ في أن أتلاشى في الغياب المنتشي الذي للنباتات، إلا أن هناك نداء ضاغطا في مكان ما يتحدى المسافة والصوت. لقد صرفتُ وقتي المتاح لي في الاستراحة، وبات وِين بحاجة إلي.

أعود ماشية، مبللة بالمطر من دون أن أبالي بالأمر. في نهاية الطريق في الحديقة، ألمح قرية «غيرييب» وقد أضاءت أنوارها.

سائق تاكسي يناديني، مشفقا على الأرجح على حالي.

- أتريدين سيارة أجرة، سيدتي؟

أهز رأسي بالتأييد، وأقعد بمكاني في السيارة، إذ إن وِين ينتظرني.

جسدٌ آخر متروك في الخلف، ينظر إلى المطر، والشَّعر يتساقط منه الماء؛ الهواء رمادي ومبدد مثل المدينة تحت الغيوم، والحديقة تحت الضباب. لقد تركتها، الأخرى، من دون أسف مستعيدة جسم الأم واللبوة، مسلَّحة بغريزة متوحشة بمقدار ما هي بدائية، وقديمة بمقدار ما هي محتومة.

6

أنا منهكة. كنت أرغب في أن أنام. الأصوات حولي تحولت إلى طنين مبهم، مع ضحكة متقطعة أحيانا، حادة وثاقبة. هناك ما يلمع في عينيَّ؛ أحتاج إلى وقت قبل أن أعي أنه لمعان مصابيح الكريستال، وانعكاسُه في الكؤوس العديدة وفي أطباق البورسلين النقية. يتجاوب معها لمعان الأحجار الكريمة حول الأعناق، وفي مقابض النساء. أجد صعوبة في متابعة حديث جارتي على الطاولة. أنظر إليها، ولا أرى سوى فم قرمزي سميك يتلوى بيسر محسوب.

- أحدثكِ، يا أنجالي، عما عاناه هذا الصبي إثر الحادث، إذ إنه يصعب تصور معاناته، فهي مما يجانب الفهم. في الحادث، سُحقت قدمه اليمنى، ما استدعى بترَها. هل تظنين أن مأساته توقفت عند هذا الحد؟ لا، أبدا؛ بعد أيام على ذلك، تبين أن الغرغرينا انتشرت في جسمه. أتعلمين؟ لقد كان مصابا بداء السكّري، من دون أن يعرف ذلك أحد، بمن فيهم الأطباء أنفسهم. انتشرتْ الغرغرينا في جسمه، ما هو صعب التصديق، لو شئت، وراحوا.. قسما بعد قسم.. بلى، قسما بعد قسم.. كم كان يتألم هذا الفتى المسكين، الذي يقترب من الخامسة والعشرين من عمره! كان يقول أثناء نومه: اقتلني، اقتلني، يا ربي، بفرنسية متعثرة. هذا ما كان يذيب القلب. إلا أن الغريب، لو تعلمين، هو أن الشاب لم يكن مصابا بداء السكّري قبل

الحادث. فقد أجرى قبل ذلك تحاليل للدم، من دون أن يجدوا فيه ما يقلق. ولكن أن يصاب بحادث وبداء السكّري في الوقت عينه، فهذا مما لا يُحتمل. والدتُه بحثت، وعرفت أن هناك امرأة ساحرة، وكانت التي.. إنهن قادرات، في أيامنا هذه، على فعلِ أي أمر، كلّ شيء. إنهن قادرات على تسميمنا، على تخريبنا، على نشر المرض أينما كان، على تعطيل أجسامنا، عضوا إثر عضو.

كان أشبه بالمخدِّر، ما يُحدث الهلوسة. في ودي أن أصرخ، لكنني لا أقوى على ذلك. هذا الصوت يثقب نفسي، وفكري. الفم القرمزي يتابع حركاته، منفصلا عن الشخص، مثل كائن صغير مكتنز بين أرض وسماء. أشعر بأنني سأصاب بالدوار؛ والسومون المدخّن في صحني يبعث على الغثيان. حول الطاولات، خمسون شخصا يتكلمون بالطريقة نفسها، من دون أن يتوقفوا. يقع نظري أحيانا على نظر ديف القلق، متسائلة بشكل صامت، من دون أن أنجح في تمرير جواب. على أي حال، لم تكن لي رغبة في ذلك. كلُّ شيء ساهمَ في بلبلة أفكاري، من الشراب الأبيض العذب، الذي سكبوه في كأسي من دون توقف، إلى المخدِّر الذي يجتاح أذنيّ ورأسي، من دون أن أعفيه من مسؤولية ذلك. أذكر أنني قلتُ، عند الخروج من العيادة: لا، لن أذهب إلى العشاء مع فيصل هذا المساء؛ وأذكر أنني سمعتُه يقول: هذا سيسلّيكِ بعض الشيء؛ لا يسعنا البقاء خارج الحياة. إلى هذا، هناك عدد من الشخصيات في العشاء ممن أحبُّ اللقاء بهم.

- في إمكانكَ الذهاب وحدك، أنا لا أمنعك من القيام بذلك.

- أريدكِ أن تأتي. هذا، من أجلك، ثم، من أجلي. هذا يولِّد انطباعا طيبا، عندما يأتي رجل مصحوب بامرأته. لو أتى الرجل وحده، فإن هذا يولِّد انطباعا بأنه زوج خائن.

- ألن يشعروا بأنني، أنا، لا أعدو أن أكون غير مزهرية في رف؟
- ما تقصدين بقولك هذا؟
- هذا واضح، على ما أرى.. أوه، على أي حال، لا أهمية للأمر. سآتي معك، يا زوجي الأمين.

لهذا السبب أنا، هنا، مرتدية ثوب «الساري» المقصّب والثقيل، مكحَلةً[19] العينَين، والمجوهرات في الأذنَين، حول العنق والمقبض، مضطرة إلى سماع امرأة من دون عمل تروي لي زياراتها كلها إلى العيادة والمستشفى، وتسألني ما إذا كانت الحياة مأساة أم هي ملهاة، وغيرها من الأمور، مما لا أحسن البت فيها.. أعليّ أن أضحك أم أن أبكي، عياديًا، من النقطة الصغيرة البعيدة قرب السقف.. ها أنا أراقب نفسي، منتظرة ردة الفعل الكارثية التي ستقلب العيد رأسا على عقب، وتجعل ديف يشعر بالفضيحة.

لكن ردة الفعل لم تحصل، لأن فيصل، الجالس إلى جانبي، على طرف من الطاولة، راح يحادثني. كان يحدق بي بقدر من التركيز المحيِّر، فيما تشعُّ عيناه الصافيتان مكرا على وجهه. يضع يدا سمينة فوق يدي، وتلمع فيها ألماسة كبيرة.

- أنجالي، قال لي، علينا ألا نفقد الأمل قط. أقولها لكِ - أنا الذي كنتُ مهدَّدا بالسجن مدى الحياة، لولا عناية الله بي، وذكاء زوجك - صدقيني إذ أقول لك بأن الله قادرٌ على صنع كل العجائب.

أُلقي نظري على ما يحيط بي.

إنها أعجوبة فعلا، أن يكون تاجر المخدرات وقاتلُ العيش بهذا الرخاء، وأن يستقبل هذا العدد الكبير من الشخصيات البارزة في البلاد! أما البيت فهو يعكس تماما هذا الذوق الفاسد والمكلِف للغاية. لـ «الموكيت»، بين

(19) هكذا بالنطق العربي في النص الأصلي.

الأخضر والأصفر الباهت، مفردات زخرفية بين الأحمر والبرتقالي. وعلى الجدران ورقٌ للزينة تتوزع فوقه مجموعات مذهَّبة من العصافير في مدى طيرانها. أما المقاعد، فمنحوتات متبلورة، مصنوعة باليد، وكلٌّ واحدة منها قطعة فريدة في نوعها. لا تبدو على هيئة هذا البيت أي نعمة، أي سحر. وفق هيئة فيصل نفسه، المحشور في طقمه الحريري الرمادي اللؤلؤي.

يرفع كأس الماء (ما دام أنه لا يشرب الكحول، حسب العادة).

- اشربي معي، يا عزيزتي أنجالي، بادري إلى مشاركتي هذا الشرف. ما زلتِ حزينة للغاية، وبعيدة للغاية. لماذا الاحتماء في هذا البرج العاجي؟ اسمحي لمن أخلصوا لك بمساعدتَكِ. تذكري هذه القصيدة باللغة الأردية..

- سامحْني، فيصل، قلتُ له، أنا متعبة للغاية في هذه اللحظة لكي أحسن تذوق شِعر بالأردية.

- أجل، أجل، بالطبع، أنا أتفهم هذا، وهو يشدُّ على يدي بإلحاحٍ كريه.

أبحث بنظراتي عن ديف، متمنية مساعدته لي، إلا أنني لم أعد موجودة في نظر ديف. فلقد كان مشغولا بإنهاء عقد مع أحد المدعوين، شادا على قبضة يده. نحن في عالم من الرمال المتحركة، وهو لا يعلم ذلك.

الحياة تستمر. الناس من حولي يتكلمون عن المطر وعن الطقس الجميل. فيصل يتحرش بي، فيما يتمدد في العيادة شاب، مقطَّع في مزق صغيرة؛ ولم يعد فيه شيء سوى نظرة رتيبة تطلب الرحمة: اقتلني، يا ربي.. أحد رجال السياسة يُلقي خطبة طريفة وغريبة، فيما تُطلق النساء صراخا نافرا، بين كونهن متضايقات، وبين كونهن منبهرات. يشرع فيصل في دندنة أغنية، منحنيا صوبي، فيما كنت أتساءل ما إذا كان أَقدمَ على الشرب، خلافا لعادته، عندما تنبهتُ إلى كلام الأغنية: شفتاكِ مثل ضفتي (نهر) الغانج..

أناس مساكين، من دون سبب. أناس مساكين، من دون صخب؛ أناس

مساكين يرتكبون الخطيئة ضجرا، لن يجد أحدٌ صعوبة في التعرف إلى وجوههم في مرآة فيما لو وقفوا أمامها. يا للمساكين، يا للأناس المساكين! شفتاك مثل ضفتي الغانج. اسكتْ، يا فيصل. لكَ زوجة في الجهة الخلفية من البيت، لا ترى أحدا، ولا يراها أحد. لكَ فتاة، رأسها مغطًّى بـ «الشادور»، وهي ليست مقبولة معنا، هذا المساء. لكَ قريبة، فاطمة، تسكن ما هو أقرب إلى كوخ في الطابق السفلي من بيتك، لأن والدتك، العجوز المستبدة، نصف المجنونة، تكرهُها. اسكتْ. اسكتوا كلكم. كلامكم لا يفيد، مثل هذا النبيذ الذي نشربه بكل حرية، مثل هذه الأطباق اللذيذة والباهظة الثمن، التي ستنتهي في النفايات مثل غيرها من الأشياء. كلُّ هذه الحياة التالفة، وهذه اللقاءات التي هي أشبه بفقاعات هواء، ستمضي ما إن تنفجر. الغرف الداخلية، المقطونة من أشباح نسائية، التي لن نرى لها وجها. الغرف الخارجية، ذات المرايا المتوهمة، والأفواه العديدة التي تتحرك متحدة مع بعضها، وهي تتكلم، وتمضغ، وتبتلع.

كان ديف، في هذه اللحظة، يبيع نفسه لأحدهم ممن يريدون حماية واجهاته الكثيرة، وطرق عمله غير الشرعية، بل ينقاد ديف بتلذذ إلى الخديعة، وراء ابتسامة الغرور الخفيفة.

ما عدتُ قادرة على البقاء على الكرسي، فوقفتُ. فيصل يحدق بي متفاجئا.

- يجب أن أمضي، فيصل، أقول له.

- لكنك لم تنهي أكلكِ.

- لا أهمية لهذا. هلمَّ، يا ديف.

ينظر ديف إليَّ بشيء من التردد.

- لم ننتهِ بعد، أنجالي.

- أقول لكَ إنني مضطرة للمغادرة.

كانت الأفواه المدوَّرة حولي ترسم معالم مفاجئة. وكانت الوجوه متفرقة في ضباب من التفاهة. ثم تتوقف، بصورة مباغتة، جلبة الملاعق فوق الصحون. كما يتوقف أيضا أزيز الزنابير ذات الألسنة السامة. رجلٌ له عينان مثل عينَي قطة ينظر إليَّ، وهو يبتسم ابتسامة خفيفة، فيما بدأ العرق يتصبب من فيصل، أشبه بدموع ثقيلة تبسط وسخَها فوق خدَّيه. يقف ديف مُكرها.

- فيصل، الرجاء مسامحتنا. أنت تعرف أن وِين مريض، وهذا ما قلبَ مزاج أنجالي.

- لستَ في حاجة لإبداء أي اعتذار، ديف، قلتُ له بهدوء.

أنا ما عدتُ أحتمل هذا العشاء، بكل بساطة.

ولا أريد تقليد الحضارة الغربية، مثل المستعمرين الصغار، الذين نحن عليه.

- أنجالي.

- توقفْ، توقفْ. انظرْ حواليك. انظرْ إلى هذه الدمى المتصنِّعة التي لا هوية لها غير الموضوعة فوق ثيابها: بيار كاردان، كريستيان ديور، كارتييه[20]. لو نزعنا عنهم هذه الثياب، فلن يبقى لهم شيء. نحن نعيش في عهد أشبه بالماشِين في نومهم. ديف، لا قدرة لنا على تغيير أي شيء، وإنني أرغب في بزوغ ضوء الشمس وألقها، وفي القهقهة من أجل إيقاظ هذا الغبار، وكلِّ هذه العفونة..

ما لكم تُبدون هذا الفرح الشديد؟ أمن أجل بدلة من حرير؟ أمن أجل كأس من الكريستال؟ أمن أجل الكافيار والشمبانيا والسومون المدخن؟ شفتاك مثل ضفتَي الغانج..

أخذني ديف بيدي، بنظرة قاسية وحادة، وقادني إلى السيارة. كانت

(20) أسماء ثلاث شركات فرنسية للخياطة الراقية، والتي تحمل أسماء أصحابها (المترجم).

أصابعه تنغرز في جلدي. دفعني إلى الداخل، بعد أن انتزعَ قلبي.

كان يقود السيارة بصمت. وماذا عني؟ ما الذي يمنعني من الصياح؟ في حلقي سداد من القطن المندوف يمنع صدور الصرخة المنتفخة بشكل خطير، ويقمعها ويدفعها من جديد في داخل جسمي.

أحاول أن أتكلم، أن أحرر نفسي السجينة، لكن فمي ينفتح ويعبُّ الهواء، من دون أي جدوى في هذا كله. ديف لا ينظر إليَّ. أنا أنظر إليه، وأتأسف لكوني لم أبقَ جامدة في العشرين من عمري، حينما كنت أحتاج إليه، وحين كان في مقدوره أن يؤدي تماما، بكل توفيق، دوره كرجل وكذكر في حمايتي. كان من العذوبة بمكان أن أدع نفسي تنزلق مثل ماء هادئة ورمادية في الثنايا الدقيقة.

كم كان طيبا الشعور بالمهانة، وبالتزلف عند أقدامه، مثل خلية صغيرة متحولة تندغم في جميع الأشكال التي يطلبون منها أن تكون عليها، وتعوم في حرارة عزة النفس الذكورية، بعد أن دمَّرَها الغضب المتوثب فيها.

لعله يقدِّرني بعض الشيء في نظره. لكن كمّامات العين هذه دفعتْه فوق الطريق المرسوم لهويته الرجولية، وهي تدفعني إلى تحمُّل دوري الثانوي الذي ليس بدوري. أنا رفيقتك، يا ديف، كان في ودي أن أقول له. أنا المتواطئة معك، أنا ذات الدور الثانوي.

لو تريد فقط التوقف ولو للحظة في سباقك المجنون، والاستماع إليَّ.

إلا أن عناد المصارِع يلوح فوق جبهته. أعطاني من نفسه مقدار ما استطاع. لن يذهب أبعد من هذا، لأنه لا يقدر على ذلك. هو كذلك: تحتفظين به كما هو، أو تتخلين عنه. تتسلى الحياة إذ ترمي في وجهي بعدد من الإنذارات، إلا أنني ما عدت أمتلك القدرة على إجراءِ خيارات. حولي، حقولٌ شبه مغناطيسية ترغمني على اتباع طريقي.

وصلنا إلى البيت، منهكِين من صمتنا. الهواء الطري بددَ بعض ضباب الشراب في رأسي. أما الفاصل فقد انتهى. البيت قبر؛ نفَسٌ جليدي يستقبلنا في الداخل، نفَسٌ مختوم منذ عهود وعهود بما ترسَّب فيه من البغضاء.

دخلَ ديف إلى البيت من دون كلام، من دون أن ينظر إليَّ. القبر لي، وكذلك جدرانه التي من صمت. سأكون من جديد وحيدة مع نفسي، وماذا له أن يتغير في حالي؟ الطريق المرسومة تتمدد من تلقاء نفسها، ولم يبقَ علينا سوى أن نتبعها، أن نتبعها، أن نتبعها..

لمّا أصبحتُ في الفراش، اقتربَ مني. اعتقدتُ أنه قررَ تجاهل الحادث في بيت فيصل. لكنني شعرت، بشكل مفاجئ، بالغضب الصامت الذي يجعله يرتجف. عرفتُ، بشكل مفاجئ، أنه يسعى إلى استخراج هذا الصخب، وإلى معاقبتي. هكذا، من دون طرح أي سؤال، من دون أي تمهيد، اعتدى علي، فصرختُ، وبكيتُ من الغضب على المخدة. استلقى على ظهره، جانباه يتصببان عرقا، ثم لمسني في جانبي، على عجل، وهو يقول: نامي، حبيبتي، لا تبكي، فيما كنتُ مهتزة من جراء دموعي القاسية والجافة، وكانت أصابعي تمزق زينة وجهِ الوسادة، وكنت أعرف، وكانت لدي قناعة بأن هناك اتهاما شديدا في داخلي، بأنني تعرضت لاغتصاب، وبأنني بقيت دوما وحيدة في هذه الغرفة الداخلية.

7

وصلتْ باكرا في الصباح، بلباس «الساري» الأخضر، مثل مطلعِ صيفٍ ضاجٍّ بالأزاهير الشفافة، وعامرٍ بالبراعم. أتتْ مع ابتسامتها، وخشيتها من أن تكون قد وصلتْ باكرا، أو متأخرة للغاية، من أن تزعج أحدا، أو ألا يكون مُرحبا بها.

كان شعرها معقودا فوق رقبتها، وكانت، خلافا لعادتها، تضع حلقا في أذنَيها، من حجرَين أخضرَين للغاية، ما يعاكس الفصوص الوردية تماما.

أمي جميلة. جميلة، لأن فيها أناقة غريزية، من دون أن ترفقها بجواهر مكلِفة أو بزينة متصنعة.

كلُّ ما يشير إلى مكانتها ظاهرٌ: لون الجلد، رقبتُها العالية، والطبيعية، مع ذلك، طول أصابعها المقصوصة، واليد الكبيرة ولكن الضيقة، والجلد الأقرب إلى أن يكون شفافا، أما عيناها الممدودتان فتبدوان أحيانا سمراوين، وتعكسان أحيانا ألوانا مذهبة.

لهذا هي مميزة، حيثما تكون. ففيها عطشٌ للسلطة لم يعرف الشبع أبدا في الواقع. وفيها كائنٌ غني وقوي الإدراك، الذي تحول ما إن شعر بأن عاصفة داخلية تتهدَّدُه.

لم أعرف ميعاد حصول هذا التحول. حين فقدتْ ابتسامتها العريضة الصافية وأنوار عينيها. حين اختمرت العذوبة الصادرة عنها وانتهت إلى

مرارة، فباتت خشنة مثل نبيذ فقدَ مذاقه الطيب. حين بات كلامها لاذعا أكثر فأكثر ـ وحصّلت القناعات الثابتة التي للمسنين حين يفقدون أوهامهم.

تحمل حاليا العلامات الدالة على تقادمها. بات وجهُها، بزواياه، يُظهر الجيوب تحت عينَيها، والإشارات عند ملتقى الشفتَين، التي حفرتْها بفعل ابتسامتها الثابتة. جعلتْ الشفتَين مثل أخدودَين من الشك ومن غياب القناعات.

هذا ما لا يَظهر فعلا إلا لعينٍ متمرسة. بخصوص أمي، عيني متمرسة. أعرفُها مثل أخرى شبيهة لي، إلا أنها أكثر هشاشة مني، على الرغم من هيئة السلطة على وجهها، وعلى الرغم من هذه الشجاعة التي تُبعد سلفا أي فائض انفعالي منها. وُلدت في الزمن السيئ. كانت بنتا بالبيت، في انتظار زواجها، وفي السابعة عشرة من عمرها تم ذلك إثر زواج متفق عليه، من عائلة لها ذات المكانة الاجتماعية، ومن المجموعة العائلية ذاتها. بالنسبة لأبيها، كان التقيد بهذا التقليد أمرا أساسيا للغاية. لا شيء يُبطل هذا الدم المحفوظ منذ قرون، ولا النقاوة الرمزية للسلالة.

قبِلتْ بكل شيء من دون أي تمرد، كما يتوجب عليها. إلا أنه بقيت في نفسها طموحات غير مُشبَعة. مصيرُها كزوجة لم يكن مصيرَها، في حسابها. هكذا تمددتْ فيها المرارة بنعومة، فيما بقي الوجه نضرا. كان الداخل يتداعى، ويشيخ بطريقة رهيبة، ويتمزق بين نزواتها الأسيرة. لكن أمي، وهي تشيخ، رفضت الاعتراف أو التنعم بسعادات عابرة كانت تعرض لها.

حين تحمَّل شيام أخيرا تبعات استقلاله، واتسعت بينهما الحفرة الهائلة التي يحتمي فيها الأطفال، توقفتْ أمي عن أن تكون سعيدة، وفقدتْ معنى السعادة. ذلك أنها فهمت إذذاك ما جرى لها.

فهمتْ، بثاقب نظرها، وغضبِها الصامت، وفورانِها الداخلي، أن حبَّ الأم، واعتناءَها الشديد بأولادها، أيا كان، فإنه لن يمنع هذا الحب التام،

ومن دون حساب، من أن يتحقق، في وقت ما، من أن الأبناء يفرُّون، من دون أن يعودوا. شيءٌ ما ينكسر ويتفكك، وينثر في الحياة الصغيرة الهانئة فوضى لا توصف. للأب، فيما يخصُّه، نظرة أخرى متباعدة بعض الشيء، يشوبُها بعض الحنين، بينما تكون الأم ترى حولها أشباحا ناشئة. لن تتعرف أبدا بعد ذلك إلى أبنائها، الذين كانت قد أنجبتْهم، وغذَّتْهم، وجعلتْهم يكبرون.

بالنسبة لأمي، كان الأمر أصعب. ذلك أنها كانت متفانية كليا لشيام. هذا الابن البكر، هذا الابن الوحيد، عاشت من أجله، بنتْ قصرا هائلا من رمال فوق الهبات التي رأتها فيه، أو التي أقنعت نفسها بأنها رأتها فيه. اعتقدتْ، بكل قواها، أن لشيام مصيرا مميزا. أرادت أن تغذِّيه بنسغٍ من جنون، لكنها لم تتوصل إلا إلى هزهزة غريزة الحرية فيه. أرادتْ أن تربيه في عبادة الأم، لكنها أسالت فيه الحقد للنساء القويات والجميلات للغاية. وجدتْ في فاسنتي زوجة مثالية لشيام، ربما لأنها تعرفت إلى نفسها في اندفاعة فاسنتي، وفي الغريزة المتوحشة التي لقريبتها، لكن هذا الشبه البعيد بددَ في شيام أي انفعال رقيق تجاه فاسنتي.

إنه الفشل الرهيب في حياة الأم هذه، فيما كنا، والدي وأنا، نشهد، في الكواليس، كيف أن وجهَها يصبح أكثر قسوة، وعيناها أشد حزنا. أعتقد أن عبادتها التامة لشيام تأتت، في جهة ما من ذاكرتها، من كونِ طفلٍ صغيرٍ وخائفٍ وهزيلٍ كان يختبئ فيها، وكان جسده البارزُ العظام يحمل أثرَ الكدمات الزرقاء الدائمة بفعل قضيب من الأسل، من كونِ صبيٍّ صغيرٍ حُرم من الحب الذي تلقتْه، هي، بوفرة، بينما تنتشر حولها الرائحة المرة للحليب المروَّب، ورائحة الخوف.

اعتبرتْ سنجيفا دوما المسؤولَ عن موت أبيهما. كما أمضت كثيرا من الوقت قبل أن تفهم، وأن تصفح، لأن فيها ذات المقدار من التشدد.

أشرح هذا، اليوم، مع تقدم العمر، ومع المسافة. فأنا، في واقع الأمر، تركتُ أمي في عالمها المهتز والمتداعي، بين دواعي أسفها العديدة. أنظر إليها مثلما أنظر إلى التصاوير الباهتة والمفتتة، أرى جمالها الظاهر ولكن بعد أن أصابه الجفاف، كما أتحقق من انتظامها الداخلي الذي شفعتْ به أعجوبة بقاء. شاركتُها طويلا في ضياع فكرها، شعرتُ به، عشتُه معها، مثل كِسر حميمي. لم يكن لها، مثلي، أي خيار. لم يكن أمامها سوى اتِّباع الطريق الذي لامرأةٍ أن تتبعه في شروطها، فيما تجد، في داخل هذا الأسر، جميع العُقد، جميع الذكريات، جميع الأسف، وجميع الذنوب، تجد أرضا لاستقبالها ولتناميها.

راحت تستدرك سنوات سوء الفهم، متحدثة بإفاضة مع سنجيفا، مستمعة إلى الحكمة الحدسية، والغريزية تقريبا، التي كانت تصدر عنه، ما كان يجعلها أكثر سكينة وأكثر تحسسا للألم. كانا يمشيان معا تحت أشجار المانغا الهامسة في «كونستانس-لا-غيتي»، وكانت لهما، من جهة الظهر، القامة ذاتها، المستقيمة والمعتزة بنفسها، والجمال ذاته.

كان يبدو عليهما كما لو أنهما ينعزلان عنا، كما لو أن لهما أن يستدركا على عجلٍ حياة مشتركة، وكانا يتحدثان بلغة «التاميل»[21] الأدبية للغاية، التي ما كنت أحسنُ فهمها تقريبا. كان يصلني منهما اسم: فاسنتي، وكنتُ أدرك أنها كانت في عداد شواغلهما الكبيرة. وبقدر ما كان الزمن يتقدم، كانت عاطفتهما المشتركة تلتقي، على ما يبدو، عند فاسنتي، وتَعمل على أن تصبح مظلة حامية فوقها، وعلى التوسل لأي طيف، لأي علامة خطرة كانا يتبينانها فوق وجهها. ذات يوم، سمعتُ الخال يقول لأمي:

- إنها ثمرة «كرماي»[22] أنا.

(21) تعود هذه اللغة إلى ما يزيد على ألفي سنة، وهي لغة هذا الشعب المتوزع بين الهند وسريلانكا (المترجم).

(22) الكرما، في المعتقد الهندوسي، تعني أن ما يصيب الإنسان مقدر له، مثل النزعة القدرية، كما تشير خصوصا إلى أن الإنسان قابل للاستنساخ، للتجسد، في كائنات أخرى تبعا لأعماله (المترجم).

فأجابت أمي، وهي تُمسك بيده:

- لا تتعبْ نفسك بهذه الطريقة. إذا كانت الكرما والدرما[23] موجودتَين فعلا، فإننا لا نكون مسؤولين عما يصيبنا. لا يسعنا أن نكوّن أنفسنا وفق جميع تجسداتنا. وكيف لنا أن نصبح أفضل، وأن نشتري أخطاءنا السابقة، التي لا نتذكرها، إن كنا معاقَبِين من دون أن يكون لنا حظ ثان؟ هذا ليس بالمنطقي!

- لا منطق في الأمر. هذا ما تعلمتُه في السنوات الأخيرة. وصلتُ إلى هذا الطريق السري عبر دروب ملتوية، ومع ذلك، فإنني أتفاجأ لمّا أجد نفسي ذاكرا موضوعات كان والدنا يحشو ذاكرتنا بها، والتي كنت أريد نسيانها تماما.

- قد يكون هذا من أجل أن تعيد هذه الموضوعات من جديد إلى نفسك، وأن تعطيها معانيها الحقيقية خارج الأحكام المسبقة المكينة في نفس والدنا.

- لا أعرف.. ما أعرفه، هو أنني، بقدر ما أعملُ على نسيانها أتذكرُه. لا يسعني إغفال وجهه، وعينَيه الصافيتَين، وفمه القاسي. أستمع إلى مسبّاته اليومية، وأشعر من جديد بذلك الخوف القديم مثل آلاف الحشرات في بطني. أعتقد أن الكرما والدرما تُجريان عراكا يوميًا فيّ. أعتقد أنني أجني ثمار أفعالي، في هذه الحياة، وأنني سأجتاز، هنا، درب مصيري حتى منتهاه الأخير. الفعل، النتيجة، العقوبة، وربما المغفرة.. إلا أنه ليس من الحق أن أحوِّل أخطائي إلى هذه البنت، هذه الفقيرة الصغيرة التي لا أمَّ لها، مثل كوني لا أبَ لي. أترَين، يا ياشودا، كلُّ شيء يتكرر؛ كلُّ شيء ينتسب إلى الدائرة عينها، الهائلة، الأبدية. غير أنني لا أريد أن تتألم بسبب كرماي.

---

(23) من المعتقدات الهندوسية أيضا (المترجم).

- لن تتألم، يا سنجيفا. لا، إن كنتَ قادرا على حمايتها. هي شابة جميلة وطيبة، وإني أحبها مثل أولادي. أحبها بمقدار حبي لأنجالي. وقد يأتي يوم، ربما، تجتمع هي وشيام..

- لا أعرف، يقول الخال متنهدا. أحيانا، تحمل أحلامي وقائع الأيام القادمة، كما أنني أستبين في وجوه الناس حقائق عديدة. ولكن، حين أفكر في ابنتي، فإنني أرى غطاء من نار، ونوعا من العتمة المدمّاة. تكون إذذاك محاطة بأشياء مجهولة؛ ولا تنتسب إليَّ.

كنتُ أنظر إليهما، كانا يتصافحان خائفَين، فالحيوات كلها، بالنسبة إليهما، تتلامس، وتتداخل في لحظة أو في أخرى، خاضعة بمجموعها لاندفاعات متأتية من قوة خارجية. لم يكن أي شيء بالمجان، ولم يكن أي شيء موجودا خارج ارتباطات المصير.

لي أن آخذ في عين الاعتبار، حاليا، بأنهما كانا محقَّين. نتبع كلنا، من هذا الجدِّ المجهول إلى ابني المعلَّق بنَفَسه الضعيف، خطا متتابعا وقاسيا، حيث إن كلَّ واحد منا مسؤول عن الأخطاء التي يقترفها غيره، وكلُّ واحد منا محكومٌ بتكرار الأخطاء ذاتها، من دون جدوى، من دون أمل، من دون صراع، من دون هدنة.

أنظرُ إلى أمي. فقدتْ، خلف هيئتها النضرة، بعدُ، جميعَ فرص حياتها. لم يبقَ شيء فيها، وقد بلغت الخمسين من عمرها، سوى احتمالات متزايدة من الألم.

ما إن رأيتُها، تدافعتْ صوبي جميع هذه الأفكار دفعة واحدة، ثم رحتُ، على الرغم من مجهوداتي، أبكي بصمت. أعرف أنني أزيدُ من غمِّها، من دون أن أقوى على إيقاف هذا كله، لعلها تعتقد بأنني أبكي على وِين، ما كان طبيعيا، فيما كنت أبكي، في واقع الأمر، على كل شيء، على حياتها هي، وحياتي، وحياة ديف، وحياة والدي، وحياة الآخرين، وعلى

الحيوات التي لا تُحصى، المنثورةِ مثل غبار الطلع في الصيف، أو مثل مجموعات الزبد حيثما الريح تحملُها، وأبكي على كل تهورات العالم، التي تعود أسبابها إلى شيء غير محسوم، على الرغم من الصراعات والعصيانات والتمزقات، إلى شيء حيٍّ في أعماقنا، في ترابطات مصيرنا.

تشدُّني إليها، فيما أرغب في أن أقول لها: إني أحتاج إليكِ، لكنني لست قادرة على ذلك؛ يجب عدم الإقرار بهذه الهزيمة: ألا تقوى امرأة راشدة على الوقوف على قدمَيها، أن تهتز تماما، حين يتكشف أمامها فجأة أفق من يأس. من دون أب، من دون أم، من دون زوج. عليَّ أن أصمد وحدي، وأن أدعم وِين معي.

- حالته لا تتحسن.. تقول هامسة، ومرتعبة.

- انتهى كل شيء، أقول لها برفقة ابتسامة ضعيفة. أتعرفين؟ أشعر بأنني عشت طوال الوقت في قصر من رمال. إنه يتداعى من عالي برجه حتى أساساته.

لم يبقَ لي غير أن أندسّ في نفق الخِلد الذي يعمل جميع أطفال العالم على حفره في الرمل حول قصورهم، فهم يعرفون، هم الأطفال، أننا نحتاج دوما إلى مخبأ في مكان ما نلتجئ إليه، ونُخفي فيه الرقبة المكسورة، أو الأيدي المفككة، أو الجسد المقطّع الأعضاء، بمنأى عن الأنظار، بمنأى عن جميع الانهيارات.

- ولكن، لا تخافي، يا أمي. ما زلتُ أتحمّل الصدمة.

أهربُ من نظرتها، ثم أضيف بلهجة حازمة:

- ها أنا أقوم باكتشاف نفسي.

لها طعمُ الملح والدموع، لكنني أعرف أنها تفهم ما أقول، وأن هذا يواسيها، بشكل غريب.

- أتريدين..؟ ثم تتردد، لأنها لا تعرف كيف تقول كلماتها. أتريدين

تمضية بعض الأيام في البيت؟

- لا أستطيع، قلتُ لها. أنت تعرفين بأن ديف سيبقى وحده في هذه الحالة.

- يمكنني، إذا، تمضية بعض الوقت، وهي تستعيد الكلام. سيكون في مقدوري مساعدتك، وإعداد وجبات الطعام.

شيء ما يحترق في داخلي، إذ أستمع إلى صوت المستعطية: أرجوكم، أعطوني صدقة، أعطوني سببا للبقاء، سببا للعيش.. لكنني لا أقوى على إعطائها ما تطلب الآن، ذلك أن حليفتي الآن هي وحدتي، وأنا نفسي.

- سآتي لزيارتك، أمي، سآتي حين أحتاج إليك.. في الوقت الراهن، عليَّ أن أتصارع وحدي. أتفهمينني؟

أهناك شيءٌ متبقٍّ من عزة النفس في هذه السيدة المتسربلة بخسارتها؟ تنتصبُ من جديد، بشيء من العنف، ترسم ابتسامتها بصعوبة، تقبلني قبلة، فيها من اللطف ومن الخضوع في الوقت عينه.

- علينا أن نواجه أنفسنا، في يوم أو آخر، قالت لي. أنت محقة.

- يجب أن أمضي إلى العيادة، لرؤية وِين..

تبحث بعينيها عني، فيما لم أعد قادرة على بذل أي مجهود في فهمها.

- لعلك تعرفين أن شيام كان مريضا، هو الآخر، لمّا كان طفلا. كنتِ صغيرة، ما يصعب عليك تذكره. خلتُ نفسي، حينها، أنني سأصبح مجنونة. اعتقدتُ أنني مدمَّرة تماما. ثم سلمَ من المرض، وأنا استعدتُ عافيتي. إلى ذلك، هناك فرصٌ في الحياة مثل هذه، يحدونا فيها الاعتقاد بأننا وصلنا إلى منتهى قدرتنا على تحمل الألم. لكننا نتوصل دوما إلى إعادة ترتيب أمورنا، إلى إعادة البناء، من دون أن يكون هذا سوى الاستعداد لمواجهة الهجوم التالي. لعلنا أقرب إلى القطط، على ما أعتقد. يتوجب علينا أن تكون لنا سبع حيوات. إلا أنني أقول أحيانا.. إن واحدة منها تكفي.. تكفيني تماما.. ثم نفوز بعدها بالراحة.

تداعبني بيدها للمرة الأخيرة، وقد تنبهتْ، من دون شك، بأنها ستنتهي إلى البكاء، وبأن هذا سيكون مدمرا، لها، ولي، هي التي اعتادت على أنواع العنف، ما جعلها تكسر عشرة صحون بضربة واحدة، ولكن أن تبكي أمام الغير، فلا، هذا لا تحبه أبدا.

أدعُها تمضي من دون أسف، من دون كَرَم. في وقت لاحق، لما يتعافى وِين، سأحاول معها من جديد. سأحاول الاحتياج إليها، سيكون ذلك أضحيتي للتعويض عن أمومتها المنتهَكة، عن هذا القلب الأبدي الذي للأم الذي ينتهي إلى أن يكون، ذات يوم، يتيم الأولاد.

8

تمضي الأيام، من دون أن يتعافى وِين. مشارط، أبر، مهدِّئات، المصل الذي يسيل دوما في عروقه، نقطة نقطة، ما يفكك الزمن، ما يجعله مثل حساب استرجاعي، في انتظارِ ظهورِ علامة ما، هبةٍ من السماء ربما، على الرغم من أن الأطباء لا يقرُّون بذلك، فهم لا يؤمنون بالخوارق إلا في احتمال أخير، وإن قالوا لكَ يجب عليك الصلاة، فهذا يعني انعدام أي أمل، وأن عليك الانتظار. لا، يتوجب الصلاة قبل ذلك، لمّا تكون هناك بعدُ قوى ناشطة في عملها حول الطفل المريض، والتي لها أن تتضاعف بفعل الصلاة الجاذب.

إنه يتضاءل أكثر فأكثر في سريره. لا يبدو عليه أنه تعدّى عمر السنتَين، لم يعد غير ظلِّ الطفل الموهوب، ذي اللغة المتقنة، هذا الطفل الذي له نظرة الشاعر التي تخفي دوما نوعا من القلق أو من الفرح المتوقد. يكاد يذوب؛ أسيمضي على هذه الصورة، مختفيا بنعومة؟ لعله لم يكن في مكانه المناسب، هنا.

تمضي الأيام، وينتهي الأمر إلى أن يصبح عادة: أن أذهب لرؤية وِين. أن أقوم بشيء آخر بعد ذلك. أن ألهو، بأي ثمن، بشراء أشياء لا أحتاج إليها، وأن أقول لنفسي، إن رأيتُ ثلاثة عصافير من نوع الكاردينال الأحمر في الحديقة خلال النهار، فهذا يعني أن وِين مُقبلٌ على الشفاء.

وقعَ نظري، بالتفاتة واحدة، على ثلاثة خطوط أساسية، كانت معلقة مثل نقاطِ دمٍ فوق أغصان شجرة كافور، ولم يخيّب أملي طيرانُها المتلاحق، إذ عني لي أن وِين مُقبلٌ على الشفاء.

ثم توجهتُ إلى المعبد، مصطحبة معي طبقا من النحاس، مزينا بثمار، وبزهور، وبشيء من الفضة. حينما رآني رجلُ المعبد، بلباسه الأبيض، وأنا أتنفس طراوة الطقس، والنقاوة، ونعومة مؤثرة، قال لي:

- أرى عينَيكِ محملتَين بالغم، لكنني أشعر حواليك بطيبة كبيرة. كوني واثقة.

أخذَ مني الطبق، تلا صلوات أمام نصبَي رام وسيتا[24]، وأمام هانومان[25]، ولاكشمي[26]، إلا أن عيونها الجاحظة كانت مثبتة في جهة بعيدة، فوق رأسي؛ كما أن ألبسة الحرير، التي تزدهي بها، كانت منفِّرة، فلم أتوصل إلى التعبد والصلاة حقا، إلا أمام «لينكام»[27]، ذي الكتلة الحجرية السوداء، في باحة المعبد، والذي من دون شكل، ومن دون وجه. يعود هذا ربما إلى كون «لينكام» رمزا للتكوين والخلق.

حين رجعتُ إلى البيت، كانت الخادمة تنتظرني في زاوية الباب. نادتْني بحركة صغيرة، حذرة وسرية.

- ما تريدين، مارلين؟

أخذتْني إلى جهة معتمة في الحديقة. هنا، كانت تتدلى، في خيط رفيع معلق بغصن في شجرة الكافور، دجاجة ميتة. كان منقارها المفتوح تماما يشير إلى ما قد يكون تعبيرا عن صراخ كبير من دون أن يخرج تماما من

---

(24) رام أو راما، هو أحد ملوك الهند الفعليين أو الأسطوريين، كانت حياته مثل أفعاله حافلة ومتناقلة بين السكان؛ وسيتا معبودة هندوسية (المترجم).

(25) هو الإله-القرد، وشفيع المقاتلين في الثقافة الهندوسية (المترجم).

(26) هو إله الحظ والتفوق في الثقافة الهندوسية (المترجم).

(27) هو أحد ظهورات «شيفا» في الثقافة الهندوسية، بل عضوه المولِّد، ويتعبدون له كثيرا (المترجم).

الحنجرة، وكانت عيناها شبه المنقلبتين مغطاتَين بآثار فيلم كثيف ومدعاة للبكاء الشديد، كما لو أنهما مليئتَان باسترحام رهيب.

تراجعتُ إلى الخلف، وقد استبدتْ بي مشاعر القرف.

- ما أصابكِ، هل أصبحتِ مجنونة أم ماذا؟

كانت مارلين ضخمة الجثة، من دون أن يَظهر عمرُها الفتي إلا عند سماع صوتها، الذي كان عذبا ورقيق النبرات. كان لها رأس مربع، وشعر مجعًد ومملوط؛ كانت ترتدي ملابس ضيقة على الدوام، ما يعطي الانطباع بأنها ستنفجر إثر أول مجهود في جسمها الأسود. كانت تكلًّف عمل الغسيل والكوي ثلاث مرات في الأسبوع الواحد، وكانت تحتفظ بمنافسة دائمة، متعاظمة أكثر فأكثر، مع الخادمة الهندوسية، التي كانت تتكفل بتنظيف البيت، وبإعداد الأكل أحيانا. مع ذلك، كانت تُبدي لي نعومة تكاد تكون من الرعاية لي، وتؤكد، في مناسبة وفي غير مناسبة، ولاءها الشديد لي.

- سيدتي، حصل هذا من أجل الطفل. أؤكد لك ذلك، هذا ضروري. أشعلتُ عدة شموع في مغارة العذراء فاطمة. ستَرَين، بنفسك، أن ارتفاع الحرارة سيختفي.

- مارلين، أنا لا أعتقد بهذه الأشياء، أنت لطيفة، لكنني هندوسية، كما أن..

- لكن الهندوس بأنفسهم يأتون من أجل استشارة السيدة الصالحة، ويُطلقون عليها اسم: ماتانت سِك، وقد أنجزتْ عددا من العجائب، ثم..

كان يبدو عليها كما لو أنها مذنبة، ثم تستعيد كلامها مثبتة نظراتها بما يشبه التحدي:

- لقد اصطحبتُها معي، انظري، إنها هنا..

أدرتُ جسمي شاعرة بنوع من التخوف. كان هناك شكلٌ بارزٌ، في منتهى الحديقة، قرب البوابة الصغيرة، التي تستعملها الخادمات عادة.

كان الهواء ضبابيا بعض الشيء، ما جعلني لا أتبينها في أول الأمر. ثم رأيتُها، وأصابني شيء من الغضب من جراء الخشية غير الواقعية من هذا الظهور الغريب، هي ذات اللون الرمادي من الرأس حتى القدمَين. كانت ترتدي ملابس متنافرة: سترة رجالية كبيرة للغاية، ونوعا من البنطال الصيني الفضفاض، وحذاءين كبيرين مفتوحين من الأمام مثل فم السمك، ولها شَعرٌ هائل مجعَّد يتساقط حول الرأس، الملون بالرمادي والأبيض.

كنتُ قد سمعت عن ماتانت سِك هذه، التي كانت تسكن في ضاحية من ضواحي «كيروبيب»، في حجرة صغيرة عامرة بالحيوانات المحشوَّة بالقش، التي كانت قد اصطادتْها بنفسها وقتلتْها. كانت تَطلب من محنِّط مختص، من معارفها، حشوَ الحيوانات بالقش، ثم كانت تبيعها إلى هواةِ جمعِ المقتنيات البشعة. لكنها ما كانت تُبقيها في الحجرة إلا من قبيل توفير مناخات مناسبة، ذلك أن مهنتها الفعلية كانت الساحرة والشافية.

رأيتُها تقترب مني بخطى وئيدة، تكاد تضع أقدامها فوق الأرض، ما جعلني أعتقد بقواها هذه.

كان لشعرها الغزير والكث حياة خاصة به. كانت تنظر في عينيَّ مباشرة، من دون أن يكون لعينَيها لون محدد، ما جعلني أشعر بدخولي إلى عدمٍ، كان ينبثق منه شيء له قدرة على التنويم المغناطيسي. وقفتْ أمامي، كنتُ أعلوها بما هو أقرب إلى ارتفاعِ رأسٍ على الأقل، لكنها هي التي كانت تعلوني، وكانت تراقبني.

كنتُ أنظر إليها بشيء من الخوف، من دون أن أكون أكيدة من تصرفي، ثم شعرتُ برائحة قوية، أقرب إلى رائحة رجالية، من العَرق، والشيخوخة، وشراب «الروم»، بل شعرتُ بعفونة أكيدة من الفقر والعجز، ما هو مدعاة لدوار هائل.

- لكِ فوق الجبهة علامة، قالتْ لي بصوت خشن وفظ.

مددتُ يدي بشكل لاشعوري إلى الجبهة. كان نظرُها الغريب يستمر في استيعابي.

- للعلامة شكلُ هلالِ القمر. أتعتقدين بالقمر؟

ترددتُ قبل أن أجيب، غير مدركة تماما ما كانت تقصده بكلامها. لكنها ما انتظرتْ جوابي. كانت تسوط عليّ بنظراتها الثابتة، التي ما كانت ترفُّ أجفانها.

- يجب الإيمان بالقمر، إنه يسود علينا. إنه جالس فوق جبهتك. أنتِ طيبة، لكنك لن تعرفي السعادة. ستكونين وحيدة دوما.

اقتربتْ مني أكثر، شعرتُ بشيء من الاختناق لاقترابها مني، من جراء رائحتها، من القوة التي كانت تشعُّ منها، تلك القوة الشريرة. مع ذلك، كنتُ أعرف، في اللحظة ذاتها، أن هذه القوة لم تكن موجّهة ضدي، وإنما كانت تغمرني من أجل بناء سدٍّ حولي.

- انتبهي. الولد في خطر. قد يشفى، لكنني أرى امتحانا من نار.

بدا فجأة تعبيرٌ غريب من الشفقة في بؤبؤ العينَين العديم اللون، ما هو أقرب إلى ابتسامة لا تلبث أن تختفي في تجاعيد وجهها، الذي يحدده وينقشه مبضعٌ من التعابير والمشاعر. يَصدر عنها نوع من العناية الحانية المؤقتة، ويحوم فوقي، مبدِّدا جميع الجوانب الكريهة في شخصيتها. طرفُ شعاعٍ من الشمس تسللَ في شبكة شعرها المتشابكة، ثم انتقلَ، بشكل خفي، إلى جبهتها وفي عينَيها، تاركا وراءه ما يشبه بريق الذهب.

- أنتِ سهلة للغاية لو طلبنا تمزيقكِ، قالتْ أخيرا. أشبه بورقة دفتر. دعي ماتانت سِك تنصحك، يا ابنتي: كوني أمينة لنفسك. لا تدعي شيئا يمزقك. فكّري في الصخرة، في الجبل، وحاولي أن تكوني مثلهما. الأشياء تتكسر فوقهما، لكنها لا تكسرها، هي، أبدا. ابقي منتصبة، دوما. القمر يحميك.

أدارت ظهرَها لي، ثم ابتعدتْ، متبخرة في ألوان الرمادي المجتمِعة في الحديقة. حين اختفتْ، صعدَ من قلب الأشجار غناءٌ حزين للترغل، وشكوى مجلدة ومبقورة.

كانت مارلين تنظر إليَّ محتارة.

- لكنها سارقة، صرختْ في وجهي.

- لماذا؟

- دفعتُ لها عشر روبيات من أجل الصغير، من دون أن تعطيك أي «تابيز»، أي إذن للمرور، أي مرهم، لا شيء: سأطالبُها بإعادة المال.

- لا، دعيها، يا مارلين. سأعيد إليكِ الروبيات العشر، لكنني أعتقد أنها فعلت من أجلي أقصى ما تستطيعه.

هزتْ كتفَيها مع شيء من التذمر.

- هذا أمر جيد، إن تقبلتِ الوضع بهذه النفسية.. فيما يخصني، أنا سعيدة بدوري، لا حاجة لإعادة المال. هذا من أجله، من أجل وِين..

سارعتْ إلى مسحِ دمعة، فيما غمرني الشعور غير المتناهي بفضلها عليَّ.

- أنت لطيفة، يا مارلين. شكرا لك. وأنا سعيدة لالتقائي بماتانت سِك.

- أوه! لها، في هذه الأمور، قوى عديدة: لو تعرفين ماذا فعلت في ذلك اليوم..

ثم انطلقتْ في وصف تفصيلي بل فاحش للغاية لشراب الحب، الذي يمتزج فيه البول، والبصاق، واللقاح وغيرها من الإفرازات الحيوانية والإنسانية، ما جعلني أنسحب على عجل إلى البيت لكي لا أسمع المزيد. لم أطلب منها انتزاع الدجاجة الميتة البائسة من شجرتها؛ كنتُ أتخيلها، تتهادى ببطء في النسيم، مطلقة صراخها غير المسموع، صراخ الأبدية.

حلَّ المساء. ديف لم يعد بعدُ إلى البيت. ما أنرتُ أي ضوء، لكن يبدو

لي أن عين ماتانت سِك كانت تهيم في مكان ما فوقي، قمرا رماديا، مجففا.

لدي شعور بأن جميع الرسائل، جميع التنبؤات، قد تجمعت حولي. الكاهن، أمي، ماتانت سِك.. كلهم يعرفون أشياء لا أعرفها؛ إنهم يسعَون إلى إيقاظ وعيي الغافل، لكن شيئا ما يعيق ذلك، ولا أتوصل إلا إلى القول إن هناك نجمة فوق الجبهة، وإن القمر يسود عليَّ. ولكن ما يعني هذا؟ النجوم ماتت منذ أزمان بعيدة، والدجاجة بدورها، التي تتهادى فوق شجرتها بفضل نفَس الأرض، والشراكة الغريبة بين الترغل وبين الغسق، اللذَين توشحا بالرمادي عينه.

أما نظرة فاسنتي، فقد ماتت منذ زمن بعيد. لم نلعب مع بعض منذ زمن بعيد، كما كنا نفعله حينها، شيام وفاسنتي وأنا، إذ كنا نمضي أوقاتنا مع بعض، وتُشعلنا الحماسة عينُها. كنا مقيمِين في كوكب، كانت الألعاب فيه معتمة، وشاذة أحيانا، وما كانت المظاهر تتطابق مع الوقائع المعيشة. كان يتوجب علينا ملامسة نهايات الأشياء، حتى تلك الحدود، حيث لا تعود اللعبة لعبة، وإنما تصبح تدهورا بطيئا للشجاعة والبسالة. كانت فاسنتي تتخيل الامتحانات، وكانت تفرضها علينا. كانت تعمل على استيلاد شغفٍ مماثلٍ لشغفِها فينا، وكنا ندع أنفسنا نندعك ونولد من جديد، مثل كتل صلصالية كانت تَصنع منها تماثيل من لحم؛ وهو ما انتهينا إليه، أي الصلصال الحي، الجاهز لأن يكون مجبولا من الوجود.

كانت تريد إثبات قدرتها إزاء المستحيل، وأن تحمل شفاهها إلى المجهول، وأن تتمكن من قوة سرية، كانت تعي وجودها، وحدها. أما فرضتْ علينا صيامات قاسية، مِمّا كان يُنهكنا، خلال العطل، ويستنفد طاقاتنا وشجاعتنا؟ كانت «كونستانس-لا-غيتي» مكانَ لقائنا ومثابرتنا، في استثارة لمشاعرنا، وقياساتنا، وقيمِنا. كانت فاسنتي تُهيئ وجبةَ أكلِ

والدها، ثم كنا نجلس بعده إلى مائدة الطعام، كما لو أننا نأكل، من دون أن نرفع أي فتات إلى أفواهنا. كنا نشرب الماء بغزارة، وهذا كان كل شيء. كنا نلتقي، في نهاية النهار، تحت شجرة «البادامييه»[28] الضخمة؛ كنا نتخذ وضعياتِ جلوسٍ صالحةٍ للتأمل، وكنا ننغمس في دواخلنا، متّبِعين أنفاقا من لحم ودم، ملتحقِين، بعد ذلك، بممرات من العتمة ومن الرمال المتحركة.

كنتُ أرتجف من جراء هذا كله، أتوقف عن التقاطِ دقاتِ جسمي، ونبضِ عروقي، أشعر بأن هواء باردا وأسود للغاية يخترقني، فيما يتراقص رأسي شمالا ويمينا قبل أن يهدأ من جديد ويصبح نوعا من التموج البطيء.

كانت هذه هي اللحظة التي أضيع فيها، وأعود إلى الواقع من جديد. ذلك أنني كنتُ أتبين، في قلب هذه الهاوية السوداء التي تختلط فيها ريح من دون رائحة، شيئا مرعبا كان ينتظرني. وما كان يصلني، في جلسة التأمل الهانئة هذه، لم يكن النور أبدا. ولا السكينة التي كان لها أن تمسِّد كلَّ شعور، كلَّ رغبة، كلَّ مَيل. لا، كانت تنتظرني مملكة من حقد، ومن جلبة، وكانت تنتظرني كائنات الغسق هذه، وأنواع من وحوش الروح، غير المرئية والمرعبة إذ نتبينها، التي كانت تتلوى قرب تأملاتنا الذاتية، منتظرة الانقضاض علينا، لو تجاسرنا على الذهاب أبعد. كنت مرتعبة من هذا. ما كنتُ أنتهج هذا السبيل إلا لعدم إغضاب رفيقيَّ. كنت أعود سريعا، لكنني كنت أُبقي عينيَّ مغلقتَين، من دون أي حركة، على الرغم من التنمُّل في ساقيَّ، لئلا ينكشف أمري. كنا نَبقى، على أي حال، صامتِين تماما بعد تجربتنا، فلا نتشارك أيا من انفعالاتنا وأفكارنا.

مع ذلك، ذات يوم، بينما كان الشعور بتموجات الرأس أقوى، ونفقُ الريح أشد تصويتا وعتمة، شعرتُ بيدِ شيام تضغط على يدي. بعد أن

---

(28) شجرة ذات ثمار، ضخمة وذات ارتفاعات عالية، معروفة للغاية في مدينة سان-لويس بجزيرة موريس (المترجم).

فتحت عينيّ، وجدتُه ينظر إليّ، والوجه يتصبب عرقا. كان وجهي كذلك، كما تسارع نبض قلبي بشكل مفاجئ. كنا قد نظرنا إلى فاسنتي. كانت مستغرقة تماما في التأمل، الوجه رمادي الهيئة، والعينان منقلبتان تحت جفنَيهما شبه المفتوحَين. كان منظرها مروعا. لا يبدو عليها أي سلام، أي جمال. كانت تشبه كالي، بشعرها المتفرق، المنسدل حتى الأرض، والمختلط بالعشب الوسخ، وكانت مستعدة لانتهاج طريق الدمار الذي سلكته. ثم، وبشكل مفاجئ، رأينا شفتها، فيما ننظر إليها مسحورِين، يَرتفع فوق أسنانها ما يشبه ابتسامة هازئة.

ناديناها بنعومة. فتحتْ عينَيها المغلقتَين، والحدقتَين المتوسعتين والمعتمتين، ثم استعادت وعيَها ببطء. كانت قد أصابتها ارتجافات، وهمستْ: أعتقد أني رأيتُ.. ثم توقفتْ، تمددتْ فوق العشب، ونامتْ. سهرنا عليها مثل طفل، من دون أن نقوى على النظر بعضنا إلى البعض، شيام وأنا.

توقفنا عندها عن إجراء هذه التجارب. فاسنتي كانت تريد، فيما يخصها، الاستمرار فيها، لكن شيئا لم يكن يدفعنا إلى ذلك. ما إن أُتيحت لي الفرصة، سألت الخال سنجيفا عن هذا الأمر، من دون أن أفيده بمغزى سؤالي. قال لي:

- أتعرفين، هناك مناطق عديدة في وعينا تقعُ بين المادي والروحاني، وهي حالة الغبطة. إذا أقدمنا على التأمل من دون تحضيرات أولية، فإننا لن نتوصل مباشرة إلى القيام بالقفزة من حالة إلى أخرى. إنه مسارٌ متدرِّج، ويجب أن يتوفر لنا، من أجل القيام به، مرشدٌ عارفٌ قادرٌ على مصاحبتنا من محطة إلى أخرى. والأخطر بالنسبة إلى الشخص غير المتمرس، هو المنطقة المعتمة المحيطة بالمادي، والتي لنا أن نجتازها لبلوغ محطة التأمل الحقيقية. فإن انقدنا إلى الرعب الماثل في هذه المنطقة، فنحن

مهدَّدون بالضياع التام فيها، وبأن نكون فريسةَ جميع أنواع المخلوقات التي لا تقوم بشيء إلا لجذب البشر الضعفاء. عندها تنتشر مثل هذه الطفيليات، وتقيم سلطة قوية أكثر فأكثر على من وقعوا في الأسر.

تركتُه مرتجفة. كان هذا ناتجا، ليس من الخوف السري، وإنما من الخوف القلق، الحقيقي جدا، على حالة فاسنتي، وعلى ما سمحَ، عند هذه الصبية الجميلة والمحبوبة من الجميع، بوقوعها تحت إمرة قوة غير منظورة، وربما سيئة، ما حوَّلَها تماما.

أراها، هذا المساء، واقفة فوق أكمة من الحجارة يتساقط عليها خيط رفيع من ضوء القمر. كانت جامدة، مشبعة بالحلم وبفكرة صعبة الإدراك، فيما النَّفس هادئ، منطفئ تقريبا. كانت تنظر في الفراغ، والغياب، والهوة. كانت تُمسك براحة يدَيها الورديتَين ما يشبه لحم الصدف، وبعض العشب، وانزلاقا في الريح. شعرُها ما كان يتحرك، ولا يعكس أي ضوء. كان أشبه بكتلة كثيفة وغنية، بنوع من المتاهة التي لنا أن نضيع فيها أبدا، عالقِين في شبكات مربوطة. كانت شاحبة، وهيئتها هشة، فيما تقف، بهذه الصورة، فوق الصخور وفوق الليل.

ثم بلغتني أغنية، بل شكوى، كانت تحيط بها، بل تفرُّ منها، فتتكسر ثم تعود من جديد؛ كما كانت هذه الشكوى تصعد من الأرض، من الأشجار، من الجهات الأربع، من القمم، ومن الحفرات. كانت الشكوى تمتزج بسَيَلان الماء، وصراخِ الترغل غير المرئي. كان يختلط اسمٌ بها، ما لبثتُ أن تبينتُه. اسمٌ غير أكيد، مفكك، لا يلبث أن يلتئم على نفسه، أن يتخذ شكلا ماديا، وأن يصبح حضورا.

إنه اسمُ شيام.

شيام: قالتْ أصواتُ الأشياء غير الإنسانية، وقالتْه الريح، وحفيفُ أشجار الياسمين الهندي، والجركندا، والعندم الهندي المنطفئ؛ وقد كان

صوت فاسنتي من يفكر بهذا الاسم من دون أن يتلفظه، فقد كانت هي التي تخلقه، وترميه إلى الذئاب، وهي من يَجعل منه طقسا، ونشيدا مناسبا، ومن يَجعل منه عَقدًا مع المجهول، في منطقة الظلمة.

كنت لا أزال أنتظر، وغير مصدقة. رأيت برقا أصفر يتمزق فوق البيت، فيما كان شيام يغلق الباب بحركة رتيبة وبعيدة، ويمشي صوب فاسنتي، مثقلا بحِمله، فيما يبدو، في تقاسيم وجهه، الترددُ المعتم. شيام، يا أخي..

شعرتُ بالصخب يولد فيَّ، ويكبر. سمعتُ فاسنتي تتحدث لي، في ماضٍ قريب، بالعنف المعهود، الذي بات مندغما بشخصها: لا أريد أن أكون زوجة أحد الحارثِين.

في اليوم التالي، على ما أظن، أو بعد عدة أيام، ما دام أنه لم يعد للوقت أي قيمة، ولم يعد له أي تأثير على الأحداث هذه، وجدَ أحد القرويين إناء فخاريا، مدفونا في هذه الأكمة، مع أضحيات خصوصية في داخله؛ بلى، حدث هذا غداة اليوم الذي أتى به أحدهم إلى خالي، مع الإناء الفخاري بيده، لكي يقول له، بما يشبه الوشوشة، التي هي، في الوقت عينه، تواطؤ وإدانة، بأن ابنتك ساحرة.

منطقة الظلمة.. التي بحثتْ عنها فاسنتي واستولتْ عليها، التي جذبتْها إليها بعد ذلك، من دون أن تقوى على مقاومتها، من دون أن تقوى على التحرر منها. ها أنا، في الوقت الحالي، ألتقيها من جديد في عين ماتانت سِك الرمادية، إلا أن هذه كانت الأقوى، إذ تمكنتْ من تخفيف اندفاعة الشر لكي تجعل منها قوة أكثر سرية، أكثر حيوية، والتي تغمرني، الآن، مثل صديقة.

كوني شجاعة، يا أنجالي، قالت لي. لكل شيء معناه، أبعد من وعينا له.

9

قمنا بنزهة طويلة للبحث في ذكرياتنا. استيقظتْ بيننا شجرة عامرة بالثمار، حين عرفنا أن وِين استعادَ وعيه في الليل، وأنه شربَ كوب حليب. هذا الصباح، كانت نظرتُه، التي لا تزال هشة بعد، ترسم ابتسامة، كانت لنا أبهى الهِبات. بقينا إلى جانب سريره عدة ساعات إلى أن ينام بهدوء، ولا أعرف في أي لحظة أخذتْ يدُ ديف بيدي، أو العكس، وكيف أن نظراتنا انعقدت بالحياء الخفي نفسه.

إلا أن هناك شفافية لا تزال تحوم حول الطفل، كما لو أنه ينام في فقاعة قطنية تُبعدُه عنا، كما لا يزال يحيط بنا ذلك الشعور بخفة الطفل، ما يخفف من الفرح السريع للغاية الذي شاع بيننا.

ديف قال لي، عند خروجه من العيادة: تعالي نقم بجولة، سأذهب إلى المكتب بعد الظهر، فيما أفكرُ بأن جميع مخاوفي تولدتْ من مرض وِين، وأن الأمور بيني وبين ديف ستصطلح، وأن مجرى حياتنا اليومية سيستعيد انتظامه، وأن العشَّ سينعقد حولنا من جديد، عشبة عشبة، وأن مناقيرنا ومخالبنا سترتبُه من جديد، وتعيد إليه من جديد شكلَه الدائري الجميل.

لا أعرف أيّ طرق سلكنا، فقد اجتزنا قرى كانت تبدو مجمَّدة في الزمن، ولكن، في لحظة، عاد إليّ من جديد شعوري بالغمِّ، بعد أن صار

الخمود الاعتيادي غريبا للغاية. كانت القرى تستيقظ باكرا، منذ ساعات الفجر الأولى، وكان الناس منتشرين، ما يُظهر شيئا من الاضطراب في استيقاظهم. ينظفون أسنانهم، على جنبات الطرق، بقطعة خشبية، أو بفحمة، ويُجرون عمليات الاغتسال بمقادير من الضجيج، فيما النساء في خلفيات البيوت، والرجال أمامها كاشفون عن صدورهم، والوجوه منحوتة من جراء ضحكاتهم. الأطفال يلعبون بصرخاتهم الخفيضة، طوال ساعة من الوقت قبل أن يجمعوا حقائبهم المدرسية كيفما اتفق، وكتبَهم وخبزَهم المحشو بالسردين أو بالسمنة، وقبل أن يلتحقوا بالباص، في محطة توقفه، في خط متلاحق من الصرخات الكريهة والضاجة.

ولكن بعد هذا الهياج الأول، كلُّ شيء يخفُّ بمقدار ما تشتدُّ الشمس. تَخبطُ بقوةٍ حماسَ الناس، وتُسقط الشجاعة التي واجهوا بها الصباح، وبددت الآمال التي تولدتْ مع العصافير، ومع ريشِهم ذي الأوراق، وأماتتْ الضحكات. الرجل منهم يأخذ معه مِحطابه ومنجله، ويحملهما، مثل حمّال، فوق كتفَيه، ويتجه مشيا أو فوق الدراجات الهوائية صوب الملكية المجاورة لتلبية نداء العمل. الرأس مغطى بقطعة قماش، أو بقبعة طرية ذات أشكال عجيبة تناسبُ الرأس، ثم تمدُّه بأجنحةٍ صغيرة مفاجِئة، فيما الوجه مشدود إلى الواجب الذي يأسرُه، والذي لا خلاص منه إلا بالشراب.

تتسلحُ النساء بعاداتهن، ويمضين في أشغالهن، فيمسكن بالمكنسة، والخرقة، والأواني المعدنية الخاصة بالمياه التي يتوجنَ بها رؤوسهن، والتي يضغطن بها ظهورَهن المقوَّسة والسمراء. يتحركن بإصرار، فيما تبدو نظراتهن ميتة تماما، تحت جباههن المنحنية، وشعورهن السوداء والبراقة بزيت جوزة الهند، وبالعَصبة الحمراء على جباههن، في وسط مفرق الشعر، مثل خيط من دم يستعبدهن عند الزواج. لن يبقَ غير

صرخات حادة وخشنة، مثل التي لعصافير الطرائد؛ سينصرفن بقوة إلى مهامهن اليومية، أو إلى الطفل الصغير الذي يقوم بحماقاته الأولى، بينما ترقد نواة خفيفة من السعادة في جهة ما من نفوسهن. ويجدن صعوبة بالغة للغاية في إيقاظها.

تتبعُ الحياة مجرى واحدا من الميلاد إلى الموت، وهي مشدودة بفعل قدرية الكائنات وقدرية الحياة نفسها، فيما تقوى الزِّيجات كما المِيتات على الإطاحة بالميزان اليومي، بما فيه من جاذبية ومن انتظام.

مئة من الرجال يتجمعون حول محرقتَين، عند مخرج إحدى القرى، فوق أرض محاطة بأشجار «البادامييه» السامقة، ذات الهيئة المعتمة، التي تتجول فيها العتمة من دون أن تخرج منها. كانت الشمس في ذروة ظهورها، في الوقت الحالي، جاهزة لإيصال نارها الخاصة إلى المحرقتَين المستطيلتَين، المنتصبتَين بفعل تشبيكات من أغصان الشجر. كان الرجال، من جميع الأعمار، واقفِين بشكل استعراضي، فيما كان فريق صغير منهم، بلباسه الأبيض، يقف على مبعدة منهم، تاركا دموعه تنهمر بتلقائية. اثنان منهم، متقدِّمان في العمر، يُمسكان بمشاعل، ويُشعلان تباعا المحرقتَين بصحبة التعازيم السنسكريتية للكاهن الهندوسي. ألسنةُ النار تطقطق بعض الشيء في الجهة السفلى من المحرقة، ثم تنقضُّ على الأغصان العليا منها، قبل أن تتحد فيما بينها في انفجار هائل. الدخان يتطاير معا، ويتشابك، تحت النسيم، مثل أصابع طويلة، شديدة الزرقة في السماء.

أوقفَ ديف محركَ السيارة، ثم رحنا نتفرج بانتباهٍ شديد على طقس تحريق الأموات. يبدو لي أن انفعالا غريبا وشديدا يصدر عن هذا الاحتفال، ومن هؤلاء الأناس المجتمعِين. يعتاد الناس، بسهولة، على الموت، فيما يصيب التأثرُ الأقرباءَ منهم وحدهم. ولكن في هذه المرة، كان لجميع القرويين المتجمعِين تعابيرِ الأسى الشديد، عمّا لا يصدقونه، بعد أن

هزَّ أعماقهم حدثٌ لا يزال، على ما يَظهر، خارج حدود فهمِهم.

نزلنا، نحن الاثنان، بفعل اندفاعة مشتركة. اقتربَ ديف من مقدمة التجمع الصغير الأبيض، فيما بقيتُ على مسافة منهم، ذلك أن عاداتنا لا تسمح بمشاركة النساء في تحريق الأموات. بعد ذلك، يقترب ديف مني، مصحوبا بعدد من الرجال، الذين كانت ثيابهم البيضاء تزيد من شحوب وجوههم الرمادي.

- اسمعي هذا، قال لي، يا لها من حكاية! إنهما ولدان في الخامسة عشرة من عمرهما يُحرقان هنا.

- يا لها من حكاية حزينة، يقول لي أحد الرجال. ما يزيد من شدة حزن هذه الحكاية، هو أن أحدا في القرية ما علمَ شيئا عنها قبل أن يصبح الوقت متأخرا. كانا قريبَين، هما الاثنان، وكانت العائلتان على معرفة قوية، منذ أن درج الولدان في الحياة. لعبا معا، كبرا معا، كانا يمضيان إلى المدرسة في الباص نفسه، ويعودان إلى البيت في التوقيت عينه.

- كانا ولدَين طيبَين، من دون أي شك، يضيف رجل آخر. كانا لطيفَين، ناعمَين، هادئَين. كانا أشبه بأخ وأخته.

- لا تقلْ هذا، هذا كلام غير مناسب بعد أن.. ما نعرفه، في نهاية الأمر، هو أنهما تحابّا. ونحن لا نعرف أي مشاعر تتولد في الباص، بين الولدَين، وكيف تتشكل هذه المشاعر، وتكبر، ما لا يقوى أي شخص على فهمها، أو تخمينها. لماذا نلومهما، إذا؟

- ماذا جرى؟ أقول لهم، بشيء من الضيق. هل اعترضَ الأهل على اتحادهما؟

هز الرجل كتفَيه.

- هذا ما لم نفهمه. لم يكن المقصود قصة حب أو زواج، بطبيعة الحال، لأن أحدا ما كان يعرف حقيقة مشاعرهما. ولكن لو تحدَّث الولدان عن

المسألة، لما كانت اعترضت أي من العائلتَين، ولكانت قالت لهما، بكل بساطة، بلزوم الانتظار. إذا، لماذا هذا التصرف الغبي؟

يهزُّ رأسه من الأسى: لماذا؟ مكررا الجملة عينها، والدموع تنهمر من عينَيه.

أحدٌ آخر استعادَ رواية الحكاية: كانا يلتقيان في السر، على الغالب. ما كانا يتحادثان مع أحد، وهو ما فاجأ الناس بعض الشيء. كانا.. كيف يسعني القول؟ كانا شغوفَين، الواحد بالآخر. ثم، يوم أمس، التقيا في الحقول. كان عيد ميلادَيهما. الغريب هو أنه كان لهما توقيت الميلاد عينه، وبلغا، يوم أمس، السادسة عشرة من عمرهما. بلعا جرعات من السم، ما كنا نستعمله أحيانا لقتل الجرذان الكبيرة، أو القنافذ، التي تجتاح الحقول. ماتا بعد عدة ساعات من العذاب، من دون أن يخرجا من مخبئهما. في فترة بعد الظهر، بدأ التفتيش عنهما، لأنهما لم يعودا في الساعة المعهودة. جرى العثور عليهما، الواحد قرب الآخر، ممسكَين بأيدي بعضهما، فيما بدا على وجهَيهما أنهما تعذبا للغاية.. ولكن لأي سبب؟ في هذا العمر، ما هو أجمل من الحياة نفسها؟ مع تقدم العمر، قد نجد أن الحياة حِمْلٌ، وأنها لا تُحتمل، ولكن في السادسة عشرة.. لا تكون هناك ظلال، ولا حزن. في السادسة عشرة تكون الحياة نشيدا. هذا ما قلبَ مزاجنا، هذا الموت العديم النفع. لا يزال الأهل في حالة صدمة. لا يَطلبون الأكل، ولا الكلام، ولا الشرب.. لا شيء. يعيشون فيما مات ولداهما من دون سبب. أفي مقدورنا فهمُ دروب المصير؟

- إنهم يحرقونهما، حاليا. ثم بعد ذلك، لا شيء. إلا أن قريتنا تحتفظ بعلامة فارقة. بالنسبة إلينا، كما يمكنكما الملاحظة، لا شيء ينتهي، لا شيء يضيع. لا شيء يختفي. نحن مقتنعون بأن ذكراهما، بعد حرقهما، ستبهتُ شيئا فشيئا، وبهدوء، أو ستندثر. ولكن لن تجري الأمور على هذه الصورة.

سيجري الكلام عنهما جيلا بعد جيل. سنبقى نتذكر، أسماء، ووضعياتٍ ووجوها. إنهما نبتَتان أصابهما الجفاف قبل أن تأتـيا بثمارهما. علينا أن نُديم «الكرما» التي كانت فيهما.

علينا، نحن المسنِّين..

هنا، تنتهي الأجساد في حريقها. أنظرُ إلى هذه النار، إلى هذه الدموع، إلى هذا الرماد، ويبدو لي أنني قد انتقلتُ إلى زمن بعيد، قد مضى، حين استبدتْ بي الرائحة اللاذعة عينها، والدموع البشرية ذاتها، والغرابة التي وسمت أحد الأفعال. زمنٌ آخر، أمكنة أخرى، لكن الرغبات تبقى ذاتها، كما أنواع العطش والغنى الداخلية. في «كونستانس»، أو في قرية الجنوب هذه، تنعقد المصائر بفعلِ قوى حيوية، مثل مقصلةٍ تقعُ وتبتر، بقوة قاهرة، شيئا ما، عضوا حيويا في هذه الأجسام الصغيرة المنتظِمة. لكلٍّ موضع في الجسم علامتُه وندوبُه من التحريق. في لحظة، تتعطل الآلة، ينفلتُ دولابُها من مكانه، ويروح يدور على نفسه. ثم يعود كل شيء إلى الانتظام، بصبر وثبات، فيما تكاد تَظهر، على الوجوه، تجعيدة من مرارة، وحفرةٌ صغيرة من الأسف. تركنا الرجال لذاكراتهم، لحزنهم الرخامي. لا أعرف مقاديرَ مترسباتِ العجز، وأعدادَ العصيان التي لا نفصح عنها، التي لنا أن نصادفها فوق درب الحياة. ذلك أننا، نحن البشر، نعايش ما تعايشه هذه القرى في أسرِ تقاليدها، التي لا تساوم مع المصير، وتَقْبل أوامرَه في راحتَيها الممدودتَين، وسننتهي إلى استنفاد قوانا مثل قطرات ماء لا تنقطع، ولا تروي عطشا. لسنا أكثر حرية من الأشجار الجامدة، تَخنقنا المتسلقات النباتية، وتسحب منا النسغ الحيوي كله؛ كما أننا لسنا أكثر حرية من حركة الموج الذي لا تتوقف أبدا دورتُه، أو من النجوم ذات الأنوارِ الشاحبة التي تحتوي على طريقنا ومسارنا، أو من كتابِ ماضينا المفتوح، أو من كتابِ مستقبلنا المغلق. أي حرية موهومة، هنا وهناك؟

ديف يرددُ هامسا، في السيارة، متذمرا، وبين أسنانه، العبارة التالية: يا لهم من أغبياء صغار، كم هم بلهاء..! كتبٌ كثيرة، أفلامٌ كثيرة، من دون أي تفكير عقلاني.. أما أنا، فكنت منفعلة، متأثرة للغاية بما شهدتُ. في أقوال ديف التالية، الغاضبة، فهمتُ العنف الذي في ردة فعله:

- هناك من يُبذلون قواهم للكفاح من أجل العيش، فيما غيرهم.. يا لهذا الجهد المبدد عند هؤلاء المعتوهين الصغار!

إنه يفكر في وِين، في سريره، المحشورِ في البقية الأخيرة من حياته، في أسرِ مرضه الذي لا يفارقه إلا مرغما، فيما يُقدم هؤلاء -باندفاعةٌ قوية، وبتصرفٍ غير واعٍ ومذهل- على تمزيق القماش الحي فيهم، من دون أن يتعرفوا إلى منتهى تصرفهم، ولا إلى النفايات العديدة التي ينثرونها، من الوجع، والهم، والغضب، والأسف، خلفهم، على من هم أقرباؤهم.. النسيان الأزرق، يتسلل، بالنسبة إليهم، بنعومة صوب السماء، بقرقعته اللاذعة.

مضتْ بنا السيارة صامتين حتى الطرف الأقصى جنوب غربي الجزيرة. لا يسعنا التقدم أكثر. بات المحيط بمتناولنا، تحت أقدامنا، وتنتهي، هنا، سلسلة الصخور الضخمة، وتتراءى لنا أشكال سائلة، عنيفة للغاية، منحوتة بقدر كبير من الدقة، ما نكاد نسميه الأمواج.

الطقس رائق في هذه المنطقة، والشمس الغاربة ما عادت تحرق السماء، بل تتحللُ في توهج متسع. مجاميع الماء، المتصاعدة بعنف فوق الصخور، والمتمكنة منها، تمتزج بمجاميع الضوء التي تنهمر من السماء. ضجيج الماء والهواء نفسه يحيط بنا من كل جنب، وهو يتحدُ في ما بينه من أجل أن يصفِّر أو أن يوشوش أو يشتكي في جوف الصخور المسكونة بموسيقاها الخاصة. هذه الصخور العالية، المقبَّبة مثل كاتدرائيات، التي يحتمي فيها الأناس الخائفون والورعون عند صدور أي صوت غريب، راجفين تبعا لصرير أيديهم وأقدامهم في ملاجئ أعماق البحر، تحمل

ذاكرات أخرى غير التي لسكان الجزيرة. كانت هذه الصخور هنا، منذ البداية، وعرفتْ اهتزازاتِ أنواعِ الغاز والطاقة، المضغوطةِ تحت القبة الأرضية؛ كما عرفتْ صخب الانفجارات الأرضية، وتدفقاتِ الحمم التي كانت تصبح صلبة، إثر برودتها، وتتحول إلى أرض، إلى فضاء، إلى فسحة يجد فيها البشر نقطة لقاء وراحة.

كلما أمعنتُ النظر فيها، سكرتُ من هذه الرؤى المستدامة، وكلما صدقتُ أقوال ماتانت سِك، التي قالت لي: كُوني مثل الصخرة، تنكسر الأشياء عليها، لكنها لا تنكسر أبدا. عندي رغبة في أن أكون صخرة، عندي رغبة في أن أمتلك حريتها في الثبات، وأبديةِ نظرتِها، والحمايةِ اللامتناهية، المخفية في تجاويفها، وفي وديانها، وعندي حاجة بشكل خاص إلى التخلص من ذاتي.

لهذا، وجدتُني أصرخ، بشكل مفاجئ، فيما كنت معلَّقة بطرفِ صخرة، واقعةٍ تحت عصف الرياح والرذاذ.

صوتي لا يمضي بعيدا، يتفرق مثل رزمة من الأوراق، وتردُّه بقوةٍ الطاقةُ المضادة التي للمحيط، ولكن، فيما كنت أصرخ بطريقة مجهولة، أنا التي ما علوتُ بصوتي أبدا وأكثر مما يجب، تصاعدتْ فيَّ قوة أخرى، جديدة وصافية للغاية، وحلَّتْ محل صرخة التحرر. أصبحتُ أكثر قوة، أكثر وضوحا، أكثر استثارة، مستعدة للطيران، تكفيني خطوة واحدة لكي أجتاز ما يفصلني عن المحيط، ما يجعلني حرة نهائيا، من دون أي قيد، سيدة الأكوان كلها.

ثم انفجرَ رأسي إثر صفعةٍ من ديف، وانتبهتُ إلى أنه كان يبكي..

أعود إلى السيارة. رأسي مستقيم، ورقبتي جامدة، والجسم مضغوط في مشدٍّ من كبرياء. لم يفهمني، خُيِّل له أنني أصبتُ بهستيريا، وأنني مجنونة، ثم أحاطني، عندها، بحنانٍ مرتعش وخائف. لم يشاهد سوى حياته تتداعى حوله، بين ابنٍ مريض، وأمٍّ مجنونة، فما بقي له أي شيء،

ومن أي شيء، فلماذا يعيش إذا؟

ولكن ليست الحال، كما ظننتَ، يا ديف، فقد أخطأتَ الصواب. ما عدتُ أرغب في أن أكون نفسي. أو بالأحرى، أريد أن أستعيد، في فوضى الأفكار، غرائز وأفعالا، وهذا الخليطَ من الإنسانية الذي أنا عليه.

هذان الولدان، في الخامسة عشرة من عمرهما، عرفا، اختارا، كانا مخلصَين.. ولكن ماذا عني؟ أنا أم، ومع ذلك أتطلع دوما إلى الحرية التي لصبية؛ أنا متزوجة ولكنني أحلم أحيانا بأيدٍ أخرى تداعب جسمي؛ أحب ديف ومع ذلك أشعر بفراغات غريبة تُحفر بيننا؛ وأننا انتهجنا، كلُّ واحد منا، طريقا خاصا به، وإذا كان الطريقان متقابلَين حاليا، ما يجعلني أتوهم بأننا نمضي سويا، فإنه سيحدث في وقت ما أن ينعطف كل طريق، بغرض الابتعاد، لا التقارب.

يسعى ديف إلى المخاطرة متوجها صوبي.

- سيعرف وِين النجاة. سينتهي كل شيء إلى حال حسنة. هذا ما لنا أن نأمل به.

لا أجيب. ولكن هذا هو منفذ الخروج من حياتنا المشتركة كلها. ذلك أن شيئا من مناوشاتنا، من اختلافاتنا، لم ينتهِ إلى أي نقطةِ تفاهمٍ بيننا. فقد بددَ الزمن مشاعر الغيظ، وحاولنا التظاهر بأننا نسينا أو تجاهلنا، لكن الهوة بيننا كانت تتسع، وكان هذا خطأنا. تمرَّغنا في الأعذار، فيما كانت أجسامنا المختلَطة، وعرقُنا، ولعابُنا، وأنفاسُنا، تُكمل عملَ الإخفاء خلال سنوات.

في الوقت الحالي، أنا أعرف بأنني ما عدتُ أريد هذا، فعيناي مليئتان حتى الدوار بالصخرة، بالصخرة ذات الوجه الحاد القسمات، الصخرةِ التي تخترقُها أيادي البحر، الصخرةِ المنقاة من جميع الأوساخ؛ أريد أن أكون الصخرة، ومهما حاول ديف تحطيمي، فإنني لن أتغير أبدا.

انتظمتْ أنواع الصمت كلها، وتداخلتْ في شبكة سميكة. هناك شبكة تعلوها أسلاكٌ شائكة، في حيزٍ ضيق من السيارة. أتحصنُ بهذا الصمت؛ إنه يضغط على ديف حتى الاختناق.

في الليل، الذي حلَّ سريعا، يفتحُ ديف شبّاك السيارة، ويدير الراديو. تكاد الموسيقى تكسر السياج الفاصل، ثم تتلوى بيننا، بين حدود وقحة، مثل قطة تموء وهي قاسية.

في المساء، في السرير، حادثني ديف. بدا لي أنه يعود من بعيد، وأنه يستعيد وعيه بالنعمة التي كان لها أن تنشأ بيننا، منذ زمنِ تسلُّقنا لجبل «بيتر بوس»، وزمنِ زواجنا.

بيننا قرون وقرون من الغبار. بيننا شبحُ فاسنتي، ما يمنعني من أن أستسلم تماما إلى ما كان له أن يكون اعتقادنا المشترك.

ماذا جرى؟ قال لي، أو كان يتحادث مع نفسه: متى انتهينا إلى عدم التفاهم بيننا؟

- ما أطلبُه منكِ، أضاف، هو الشيء الأكثر بساطة في العالم. لكنكِ تُعقِّدين كل شيء؛ تحولين كلَّ كلمةٍ عن معناها الحقيقي.

ما كنتُ أقوى على شرح الأمور له، وأنني لا أفهم أبدا تناقضاته ومفارقاته، ولا جنونه الطموح، ولا تلاعباته مع الشرعية، ولا رغبته غير المحدودة في الامتلاك. كيف يمكن إجراء مصالحة بين حب المال القوي وشعور ديني ما؟ على أي حال، لا أعتقد بأنه يحب الله. دِينُه الخاص هو أقرب إلى خرافة. في الوقت الحالي، ما يطلبه، هو حياة ابني. إنه الماس الأكثر نقاوة، والأكثر كَرما من تلك التي صاغها في ما مضى، لكنني أشعر بأن أيَّ ألمٍ حقيقي لن يقوى على إعادةِ تنشيط هذا القلب، الذي استولى عليه شيءٌ آخر، أشدُّ حيوية وأشد صغرا.

- لقد تبدلتِ كثيرا، يقول لي. لم تعودي المرأة التي تزوجتُها.

- هذا صحيح. وعيتُ لأمور كثيرة.

- مثل ماذا، على سبيل المثال؟

- مثلا، أنكَ لستَ سوى واجهة. لا محتوى لك، ولا مادة. وتبذل مجهودا كبيرا من أجل تقوية هذه الواجهة، والإيهام بأنها حقيقية، لكنك لا تنجح في ذلك أبدا. هذا يشبهُ فكرتك عن بناء معبدٍ في حالِ شفاءِ وِين: عنصرٌ زخرفي آخر، وإضافةٌ مزيدة في حياتك الناجحة. هل تعرف حقيقة من تكون، في العمق؟

تاجرٌ عادي، يبيع العدالة.

مستعدٌ لبيع روحه من أجل بعض التفاهات، مثل سيارة «بورش»، أو مجموعات من قناني «الشمبانيا»، أي ما تهبُه لأصدقائك متظاهرا بكونك من الرجالات الكبار. حتى ديانتك المزعومة، فهي ليست إلا من قبيل الغش، لأنها لا تحول دون ارتكابك، هنا أو هناك، لطائفة من الأعمال غير الشرعية. وها أنت تأتي لتطلب مني، بكل وقاحة، عددا من الوعود!

- ها أنا أرى أنك تتخفين وراء بعض الخدع: لماذا لا تعترفين بأنك خجولة من جُبنك؟ بلى، وَعدتُ، أنا، بالعمل على بناءِ معبدٍ إن عَرفَ وِين الشفاء. هذه هي طريقتي في محاربة القدر. هذه هي طريقتي في عدم قبولِ عجزي. لأنه لن يعود هناك أي أمل ممكن، في اليوم الذي أقرُّ فيه بعجزي. أما أنتِ؟ فما بإمكانكِ فعلُه، عدا الصراخ الشديد أمام البحر، وإهانتي أمام الناس؟

- أعرف تماما حقيقة ما أشعر به في قرارة نفسي، وما لن تقوى على فهمه. وِين عاش فيَّ قبل أن يُولد، ولم يغادرني قط. سيبقي دوما فيَّ. المعجزة قد تحصل أو لا، إلا أنه ليس في مقدورنا استثارتها، ولا إرغام القوى الخفية على التدخل. الغباء، الذي فيك، كرجل هو الذي يسمح لك بالاعتقاد بها.

انفجرَ بالضحك، مليئا بالضغينة والسخرية. ثم أطفأ الضوء من دون أن يتلفظ بأي كلام آخر.

10

أمضيتُ وقتا قبل أن أنام. كان هناك كثير من الوشوشات، كثير من الصراخات المتلاشية، كثير من ضربات الأجنحة قربي، وكان رأسي مضغوطا، ما لم يكن سوى يديَّ وهما تضغطان على صدغيَّ.

ديف ينام. يستمدُّ طاقة جديدة في هذا النوم الهادئ من دون أحلام، ما يسمح له بالعراك يوم غد بأسلحة جديدة، بموارد جديدة، وبدكَّة متنوعة من الحجج التي أعادَ اكتشافَها أثناء الليل.

أما فيما يخصني، فإنني أترنح بين لحظات قصيرة من الوعي واللاوعي حيث أكون مجددا مطوَّقة من جميع أشباحي المختارِين، ويكون بعضها سعيدا، مثل أشباح شيام التي تسحبني إلى السينما للمرة الأولى، مشترية لي بطاقة دخول من مصروفه اليومي، وشوكولاته وقنينة «كولا».

أشباح الوقت، بين سعداء وموتى. أجملُ لحظات حياتي تقاسمتها مع شيام، لو لم تكن هناك فاسنتي. فاسنتي، وجانبها السري المبالَغ به، الذي أخافَ عالمها القريب، بمن فيهم القرويون الذين، مع ذلك، عبدوها مثل إلهة. إلا أن هذا الرابط، كم كان هشا: انقلبوا عليها بسرعة، بشكل مباغت، من دون أن يَقبلوا أي تفسير، بما فيه حبُّها المسكين لشيام. كان القرويون خطيرين لدرجة أن غضبهم ما كان يتولدُ بيسر. مثل أفعى مستيقِظة بعد سبات طويل، بعد أن امتدت الشكوك طويلا في القلوب.

كانوا يهوون الجمال، ولكنهم كانوا يخشونه، خصوصا جمال فاسنتي الذي لا عيوب فيه. من روح إلى روح، من فكرة إلى أخرى، كانت أفعى النميمة تسعى، مراكمة وَحْلها وغبارها. كان كلُّ واحد منهم يدسُّ سمَّ حقدِه الصغير، هذا الشيء الصغير المخفي في ثنية في القلب، ولكنه الذي يستفيق، إذ يضطرب، وينمو، ويكبر. هكذا يتسببُ بمقتلات وانتحارات، مثل أسماك لها لون الحقد العائم في ساقية؛ أجداء وبقرةٌ موتى من دون معرفة السبب؛ امرأة تضع مسخا له رأسان من دون أن يقوى أحد على دفنه، فيما يتعفن في الهواء الطلق، ويشهد تفتتا بطيئا وبليدا. كم من القرى باتت ملعونة بفعل وجود أحد المعتوهين، أحد المجانين، أحد الممسوخ أو إحدى الهيئات الجميلة الأخاذة، التي ما إن تتمايز عن العامة، تصبح سببا مقصودا للألم والوجع، والضحية الجاهزة التي يتوجه إليها ويستنفدها كلُّ غضب، كلُّ ضغينة، كلُّ ظلم؟

هذا يشمل الرجال أنفسهم الذين حملوا فاسنتي، وهي طفلة، على أكتافهم؛ والنساء أنفسهن اللواتي أعطينها الحليب إثر موت والدتها، هذا الغذاء الأكثر غنى، والأكثر قداسة؛ والأطفال الذين كبروا معها، الذين قادتْهم بنفسها، وأنارتْهم ببريقها؛ هؤلاء كلهم هم الذين تسلَّحوا بالمشاعل والمذرارات، وقد توردت الوجوه بقوة بعد أن جرحَها لهب النار، حيث أتوا إلى الخال سنجيفا، كاهنِهم، والدِهم، لكي يهبهم حياة ابنته، الساحرة.

اجتمعَ غضبُ الكاهن بغضب الأب. أصيب رجل الدين في صميم معتقده، والأم-اللبوة في حبها الحصري. وجدتُ، في هذا الغضب، الصلةَ الواصلة الكونية القديمة التي يقوى بواسطتها الحكماءُ على قلبِ نظام الأشياء بكلمة واحدة، وعلى إحداث زلزال إنساني بفعل غضبهم، إذ يتّحدون مع جميع القوى العائمة حواليهم.

بلغَ، عبرَها، نوبة من القوة. وكان يكفيه تلفظُ كلمةٍ واحدة.

فيما كانوا، هم، يصرخون داعين إلى استئصال الأرواح منها. كانوا يتلفظون بجُملٍ مخصوصة، ويصرخون في وجه الفتاة غير المبالية، التي ما كانت تعرف الخوف. ما كانوا يعرفون القوة الأخرى التي كانت تتنامى أمام ناظرهم، والتي كانت تُهيئ أنفاسها لكي تُطلق لعنتها الأخيرة. جرى فيهم تحوُّلٌ كامل. عطشٌ إلى العظمة، وإلى الألم. كانت النساء خصوصا، النساء المقيَّدات، النساء الأسيرات، يحسدن فاسنتي. لكن فاسنتي وقفتْ بين القرويين ووالدها. أصابتْهم الدهشة، ما جعلهم يتوقفون عن الصراخ، بمذراراتهم ومشاعلهم، بأفواههم المفتوحة، ومناخيرهم الشرهة. والدة المسخ ذي الرأسين، التي صرختْ أكثر من غيرها، راحت تتضاءل وتضيق، ثم انتهتْ إلى الاندساس فيهم، واختفتْ.

- ألا ترون أن والدي، قالتْ فاسنتي بنعومة، لن يُقدم على لعنكم؟

نظروا إليه، وحدقوا في فمه الذي سيتفوَّه بالكلمة الرهيبة. أستكون كلمة: «أ.م» الحمراء، التي سيرفعها بغضب أم ستكون صرخة الأفعى؟ أيّا يكن الأمر، فإنهم رأوه، ثم سكتوا. جمعوا أيديهم أمام الكاهن، ومضوا صامتِين، من دون أن يلتفتوا إلى فاسنتي.

عندما تأكدَ من ذهابهم، نظرَ الخال سنجيفا إلى ابنته، مستعيدا ببطءٍ هدوءَه، جاهدا في قراءة أي انفعال في هذا الوجه الجامد مثل قناع قمري. وإذ لم يجد شيئا سوى نظرة بعيدة، مماثلةٍ لنظرته، خفضَ الرأس والكتفَين، وخرج من البيت، ومضى ببطء صوب النباتات العالية والرطبة. كان زيز الحصاد يطلق صريره، وعصافير الليل تُحرك أجنحتها بين الأوراق، وتغطس الضفادع في الساقية، واحدة تلو الأخرى، مُحدثة قرقعة وعرة.

فاسنتي وأنا، وقد بقينا وحدنا، كنا نفكر في شيام.

- أنتِ محظوظة، قلتُ لها.

- لماذا؟

- والدُك حماكِ من القرويين. طيبتُه وحكمتُه تفوقتا عليهم. لكنه لن يكون هنا دوما، وفي اللحظة المناسبة.

- لا أخاف منهم، قالتْ لي. لا يفقهون شيئا، ولهم حياة بسيطة واعتيادية، باحثين على الدوام عن استثارات قوية. إنني أحتقرُهم. إنهم جرذان تقرض البقايا التي يلقونها في طريقهم، والنتفَ الفاسدة، والقمامة. أبي، شيام.. هما من الكائنات المختلفة، مخلوقات جميلة ذات مصير لامع.

- رأيتُك، ذات مساء، فوق تلة «جاكو».

- وإذا؟

- لقد شاهدتكِ، وعرفتُ ما كنتِ تفعلين. خذي حذرك، فاسنتي. لعلك ستمضين بعيدا. وأيا كان ما تفعلين، فإن شيام لن يحبك أبدا. لن يكون لك أبدا.

لم تبدل تعابيرها، لم تتحرك، لم ترمش أبدا. أدارتْ فقط ظهرها، وشاهدتُ ضعفها في الانحناءة الضعيفة لرقبتها، وفي الخط القابل للكسر بين الكتفَين والرقبة. كانت لها شفافية في شكلها الرشيق، وحين كانت تبتعد أيضا، هادئة كما في حلم، ولا تتبع السبيل ذاتها التي سلكّها والدها. كانت دوما وحيدة، وكان انتصاري باقيا بين يدي.

جميع طقوس المجموعات، جميع الهواجس، كل الخمود، هذه كلها أيقظتْها فاسنتي فيهم، أيقظتْها بفعل انطلاقتها الانتحارية، وعطشِها للعيش، وتصميمِها على ألا تكون زوجة حارث. أما شيام، شيام المسكين، ابني، أخي، الأكثر نعومة بين المراهقِين، هو الذي أصبح سببَ هذا العنف كله. أحبَّتْه، أو أحبَّت أحدا بَنَتْه بنفسها في صمت الضريح الذي في واديها، ومن أحبَّتْه أنزلتْه في جسم شيام النحيل والجميل. أما هو، فما كان يحب سلطة أمي النسائية والضاغطة عليه، كما رفضَ أيضا، بصورة إجمالية، سلطةَ فاسنتي عليه. غير أنني لا أعرف الداعي لقولي له، إثر ليلة الجنون:

شيام لن يحبكِ أبدا. ولعل هذه القسوة تأتتْ -من دون شك- من غيرة لا واعية.

كنتُ أحب شيام، مثل أم، بطريقة حصرية. إلا أنني كنتُ ذكية كفاية، بحيث لا يشعر بذلك. مضى الوقت، وانتهيتُ إلى النوم وسط ركام من الذكريات. فقد بقي من هذا كله، في نهاية المطاف، فكرةٌ وحيدة إلى أن أيقظني رنين الهاتف، وهي أن عليَّ شراء موت فاسنتي. إلا أنها فكرة سخيفة، ذلك أنه لا مسؤولية لي تجاه فاسنتي.

أيقظني الرنين في حوالي الساعة السابعة صباحا بشيء من الإلحاح الحاد، ما نبَّهني إلى شيءٍ جالبٍ للشؤم، وله أصوات سيئة ومتتابعة تتردد من جهة إلى أخرى في البيت. أمسكَ ديف بالسمَّاعة، وقد أيقظَه الصراخ نفسه المتشابك مع الأشباح. ثم انغلقَ وجهه بشكل تام، مخفيا انفعالاته كلها، ثم همس: واصلون. عرفتُ أنه وِين، وقد تعالقت عيناه بعيني من دون تعبير مزيد: الحالة تسوء، قال لي، وقامَ بجهد بيِّن لكي لا يتساقط. لأن واحدا يكفي، وقد تساقط وراح يضرب بقبضته المخدة وهو ينوح.

كان يهذي، مبللا بالعرق، من دون أن يتعرف إلى أحد. كنت أهذي بدوري من دون شك، متوهمة رؤية ابتسامات فوق وجهه، واحتراقَ غمزاتٍ ماكرة للعين، وتشكلَ تعابيرَ مقروءةٍ ومطالعَ كلماتٍ مفهومة.

- حالتُه تتحسن، حالتُه تتحسن: قلتُ لنفسي، هازَّة رأسي مثل عجوز، من دون أن يفارقها الوعي، ذلك أن واحدة غيرها رفعتْ قبضتها بغضب شديد، وراحت تطلق شتائم، مستقاة من جدول ديف القذر.

أرادوا إخراجي من الغرفة، لكنني نشبتُ مخالبي في وجه من كان الأقرب مني في جهة العدو، وشعرتُ برضى عنيف لمَّا رأيتُ أربع قدد دموية فوق اللحم الطري.

- أنجالي، (بالإنجليزية)، رحمة بالسماء، قالَها ديف بشيء من الحدة.

كان غاضبا للغاية مني، وكنت أنظر إليه منكرة موقفه.

- وِين يحتاج إلى الهدوء، أضاف هادئا بعض الشيء.

- وِين يحتاج إليّ، أجبتُه، ثم اتجهتُ إليه أحوطُه بضربات قلبي.

وقعُ خطى في الممر، وحفيفُ أثواب عديدة من «الساري»، والتهامسُ المعهود في ممرات العيادة.

بعد ذلك، جيش من نساء حطّ بيننا، ما جعل الطبيب يتضايق، ويغادر الغرفة، معلنا أن الزيارات ليس لها أن تتخطى الخمس عشرة دقيقة، وإلا فسيضطر إلى ترحيل الجميع بعد ذلك.

عائلة ديف كانت مِمّن زارَنا. أمه، أخواته، عدد من الزوجات، قطيع من العمات والخالات، وجدّة بعيدة كانت بحاجة إلى من يساعدها لكي تقوى على التقدم خطوة إثر خطوة. أحد الأصهار فريد من نوعه، كان يختبئ في زاوية من الغرفة، متضايقا من هذا الغزو. كانوا يُعبِّرون كلهم عن حزن صادق، ما كان يضايقني للغاية. بدا على ديف استحسانه للزيارة، ما جعل أمه تشدُّ على يده للحظة سريعة قبل أن تبتعد عنه، وتنصرف إلى النافذة.

أما فيما يخصني، فقد تلقيتُ ببرودة الكثير من القبلات. كنتُ أشعر بأن أجسامهن حولي، وعرقَ النساء، وزيتَ جوزة الهند الذي يدهنَّ به شعرهن، وتوقعات الأمل المتعاظمة فيهن، فيما كنت أحيط وِين بصورة أكبر، حامية إياه من وقع ضربات الأجنحة و«الساري»، ومن الضجة التي تُحدثها أصوات متفرقة، لا تلبث أن تتحول، بعد أن تصير وشوشات مخنوقة، إلى تصويتات صغيرة تتردد أصداؤها في الغرفة.

طلبت الجدة محادثتي. سيدتان عملتا على إنهاضها من المقعد الضيق، الذي اختفى فيه نصفُها، وجعلاها تقترب مني. كان لها من القوة بحيث إنها أمسكتْ بيدي. تلفظتْ بأشياء مبهمة في قرقرة من لعابها.

ثم انفجرتْ بالضحك، على ما بدا لي، فاغرة فمها كاملا، في وجهها الممسَّد بمجموعة من التجاعيد، ثم نظرتُ إليها مندهشة لمّا رأيتُ دمعتَين نادرتَين بخيلتَين تتساقطان من عينَيها، أكثر هزالة وعقما وقِدما من العجوز نفسها. اهتزَّتْ تماما لصدور الضحك البكائي الناشف والموقَّع عنها. السيدتان قامتا برفعها من جديد، وابتعدتا بها. شعرتُ أن روحي تضيع ببطءٍ في كابوس باهت وغير متناهٍ. لن أتحمل هذا دقيقة أخرى مزيدة.

راحت الوجوه تدور وفق إيقاع فاتر.

كانت لوالدة ديف طلة نضرة بالنسبة إلى عمرها، وكان ديف يشبهها للغاية؛ كانت تحدق بي بنظرة متأملة، الأمر الذي كان يضايقني. هذا ما تنبهتُ إليه، ما جعلَها تضع يدها بقوة فوق كتفي، بعد أن مسحتْ عينَيها بحركة سريعة.

- إن كان هناك شيءٌ يمكنني القيام به للمساعدة، فلا تترددي. نحن نحاول مساعدتك، بأي طريقة تناسبك. اطلبي ما تشائين..

ثم أضافت، مع ابتسامة:

- يمكنك حتى مطالبتنا بالرحيل، فهذا لن يضيرنا.

- لا، أبدا، يقول ديف معترضا. نحن سعداء لكونكم قد أتيتم، كلكم.

- أجل، يا أمي، قلتُ لها بصوت ضعيف، نحن سعداء للغاية. لكن لا شيء للمساعدة.

اجتاحتْنا جوقات من الشخير والتنهدات من النساء الأخريات في الغرفة، ما جعلها تهتز. شيء ما راح يتضايق فيَّ.

كانت لا تزال تحدق بي، مصحوبة بذلك التعبير الضاغط الذي كان يحيلني إلى بقية صغيرة من امرأة، طائشة؛ كما شعرتُ، هذه المرة أيضا، بأنها كانت تزنني، وتتفحص مدى القوة والإصرار فيَّ، أي مجموعَ الشجاعة والمقاومة. هزَّتْ رأسها، كما لو أنها تجيب عن سؤال طرحتْه على نفسها.

كانت تشبه ديف للغاية، كنتُ معجبة بها، مثل ديف، وكنتُ أخشاها، في الوقت عينه. كنتُ أرغب -عن بُعد- في أن أكون مثلها، امرأة قوية، ذات شخصية لا تقاوم، وقد وَضعت على حياةِ كلِّ فرد من أفراد عائلتها المتسعة خاتمَ نجاحها. كنتُ أرغب -عن قُرب- في الاختفاء تحت الأرض لكي أتخلص من نظرها الجاف للغاية، الذي كان يكشف الضعف والتردد فيَّ، والجُبن النسائي المفرِط. كان هناك دوما بيننا هذا الحاجز، وهناك فكرة لا يتمُّ التعبير عنها بين امرأتَين: هي، من ناحيتها، تحتقر ضعفي، لكنها تتفهمه أيضا، وأنا، من ناحيتي، حسودة بشكل عام من قوَّتها. لقد كنا نتفاهم، بين حماةٍ وكنَّة. إلا أنه لم يكن هناك أي مُشتركٍ بيننا كامرأتَين.

- سنتحدث عن هذا كله في مرة أخرى، قالتْ لي بصوتها القوي. سأعود لزيارتك وحدك. علينا أن نتحادث قليلا، أنا وأنت.

هززت رأسي تأييدا. حنتْ رأسها على ديف، انتبهتُ إلى أن عينَيها كانتا تدمعان، ثم وضعتْ يدا راجفة فوق شَعر الطفل، كما لو أنها تباركه بقدر كبير من العناية. لكنها شدَّتْ على شفتَيها، ومنخاريها، لكي لا تبكي؛ كما شعرتُ بأنها تقوم بهذا من أجلي، ما هو فعلُ احترامٍ للألم الشرعي والحشوي الذي أشعر به. قلتُ لنفسي إن بيني وبين هذه السيدة طريقا طويلة سنمشيها معا، وإنها طريق جديرة بأن تُعبَر.

ثم استدارت، بعد ذلك، صوب ديف، لامسة ذراعه لمسة خفيفة للغاية. هذا يكفي لكي يستدير، ولكي ينظر إلى عينَيها. تنعقد بينهما صلة صامتة من الحميمية، ما يخرج تقريبا عن المقبول. أراها تستعيد منه، في هذه الحالة التي تعيشها البهيمة إذ تصاب في قلبها، إمرتَها عليه، بعد أن كانت قد فقدتْها. نظرتُ إليها تستعيد سيطرتها على هذا الرجل -ما تنبهتُ إليه للتو- وهو الذي أمتلكه بالقانون. شراسة حربية تجتاحني.

كان الآخرون يُحيطون بي مثل ذباب ضاج، ويُبعدُه عن مجال نظري.

كانت الذبابات تطنُّ بقوة مزيدة، ويفاقمُ الألمُ وتموجاتُه من سماكتها، مكتسبات قوة العيش من كونها تتكفل بجميع الإحساسات ومن كل نوع؛ فالذبابات تجد أمكنتها في مستشفى، في عيادة، في مقبرة، فوق نقّالة؛ كانت تتنقل من مريض إلى جثة، مثل السواقي التي يحملُها مخزونُها الجوفي، ولا شيء يوقف انطلاقتها، أو حبّها الشديد لكل ما هو معتل.

كنت أستشعر، من الجهة الأخرى للحاجز، خلف أثواب «الساري» المثنية كيفما اتفق، والتي تنتهي بذيل بسيط خفّاق بين عظمَي الكتفين، خلف هذه الوجوه المائلة جميعها إلى السمرة، حيث تُزهر نقطة بلون صارخ في وسط الجبهة، أو يَلمع بريق الذهب في طرف المنخار، كنت أستشعر بالتوافق السري المقلِق بين أم وطفلها، الذي يبقى غير مسموع، ومع ذلك كنتُ أستشعره في الغيرة.

ما نسيتُ وِين، الذي كنتُ أحيطه بيدي بقوة، لكنني كنت أريد، بطريقة مَرَضية، معرفة ما يقولونه بينهم. ساورني شكٌّ، وما لبث أن اتجهَ صوب اليقين. إنه يتعلق بي. لا بدِيف، ولا بوِين. يتعلق بي. أبعدتُ، فجأة، بيديَّ جوق الشخير.

- ابتعدوا، إنه يختنق!

تراجعنَ بانضباط عسكري، بعد أن جمعنَ كراماتهن المُهانة، فيما كان ديف قد عاد إلى تأمل انزلاقات البخار فوق الزجاج، ووجدتْ أمُّه ما تقولُه لأحد أصهرتها الكامنِ في ركنِه.

إحدى عمّات ديف فتحتْ قفّتها البلاستيكية الوردية، التي تضيق بأغراض متفرقة ومتنافرة: مثل قطعةِ قماش كانت قد أعجبتْها بلمح البصر، واشترتْها بسعر زهيد، في بسطةِ أحد الباعة المتجولين، ومثل ثمرةِ أناناس تخرج من القفّة برأسها الأخضر والشائك، ومحفظةٍ صغيرة للخياطة، وأشياء أخرى يصعب التعرف إليها، فيما راحت تستخرج منها

محرمة بيضاء، مدوَّرة مثل كرة. دارت بسرعة حول سرير وِين، ثم دسَّتْ المحرمة تحت الوسادة.

- هذا سيجلبُ له النفع، قالت لي كما لو أنها ترجاني.

كانت تعرف موقفي من هذه المواد السحرية. كان وجهُها العريض والمسطَّح يتصببُ عرقا. انتبهتُ إلى كونها قد تزينتْ بكمية من الجواهر الذهبية، كما لو أنها كانت في عرس. كان بريق المعدن يُعاكس سمرةَ جِلدها. كانت تشبه إحدى الإلاهات، «كالي»، التي كانت تضيق بالأضحيات من قبل عابدِيها.

لم أُجبْ، فقد كانتْ في حالة غائمة ما لا يسمح بإجابة مناسبة. كان يبدو على وِين كما لو أنه يحترق من داخله. كان يضع، بمنأى عن المسكِّنات، يده الصغيرة على رأسه، لأن الألم يخترقُه، مع ذلك، وينتزع من عينَيه المغلقتَين دموعا لم يكن واعيا لها.

انتبهتْ أمُّ ديف إلى كوني بلغتُ نقطة اللارجوع، إذ أتتْ وقبَّلتْني، وأشارتْ لديف إشارة سريعة، ثم خرجتْ حاملة معها جوقتها كلها. عدتُ أتنفس بجرعات كبيرة، مثل غريقة بلغت سطح المياه.

كان ديف يدير رأسه صوبي، ثم همسَ لي، فيما تَظهر في عينيه ضغينة صامتة:

- أعرف أنك لا تحبين هؤلاء النساء، إلا أنه كان في إمكانكِ عدمُ إظهار هذا لهن.

بحركة غاضبة، نزعت المحرمة المربوطة على شيء مجهول، ثم رميتُها له في طرف الغرفة.

- هذا ما يغضبُني! قلتُ له. أنواع السحر الغبية هذه! هذه الأشياء كلها التي يعتقدن بها!

اقتربَ مني، وانحنى فوقي، وقال لي بنعومة:

- لو مات الولد، فسيكون ذلك من جراء اعتقاداتكِ أنتِ. ستكون غلطتكِ، يا أنجالي، بسبب رفضكِ تقديم الأضحية. إن مات وِين، فسيكون في إمكانكِ الذهاب إلى الجحيم، فأنا لن أحتفظ بكِ.

انكمشتُ على نفسي مذعورة. شيءٌ ما تفلتَ مني بسرعة. تفلتَ عبر غابات شاسعة مأساوية، عبر مناظر من الطاعون، عبر وديان من الزبالة، التي خرجتُ منها سليمة، سوداء من الرأس حتى أخمص القدمين، عبر الكوابيس الحديدية، كنتُ أتفلتُ من شعوري بالذنب، فأنا ما كنتُ أعلم أي ذنب قد اقترفتُ.

إنه وِين، على ما أعتقد، وِين الذي أوصلتُ إليه هذه العدوى الرهيبة، هذا خطئي. جعلتُ وِين مريضا، وعليَّ أن أدفع المتوجب علي؛ سيقومون بشنقي، من دون شك، سأتهادى مثل دجاجة سوداء في طرف أحد الأغصان، ولن يسمع ديف أبدا صراخَ المغفرة الذي يتصاعد من فمي المفتوح ومن لساني المتجمد.

* * *

- أعطيتُها عشر مليغرامات من «الفاليوم»[29]. خُذوها إلى البيت الآن.

- ليست قادرة الآن على مواجهة أي مشكلة.

- النساء هنَّ هكذا. أتعلم؟ يستسلمن حين نكون بأمسِّ الحاجة إليهنَّ.

- علينا مراقبتها، في صورة دائمة. ليس لي ولد مريض بين ذراعيَّ، بل اثنان.

- هي تعي الأمور تماما. ستتحمل الضربة، على ما أعتقد. بالطبع.. كلُّ شيء موصول بشفاء الطفل.

- ماذا تقول عن حالتها، أيها الطبيب؟

(29) دواء مهدئ للتوترات العصبية النفسية (المترجم).

- حاليا، لا أستطيع أن أقدِّم تشخيصا لحالتها. لنا.. أن نضع أمامنا جميع الاحتمالات.

- لن تبقى على قيد الحياة، إن..

- لا تفكرْ في هذا الاحتمال، الآن. هناك عدة احتملات. أعِدْ زوجتك إلى بيتها، اهتمّ بها.

- يجب ألا أقول هذا لك، ولكن، أتعلم، أن بيني وبينها.. لا أعرف، لكن العالم انقلب.

- هذا ما يحصل عادة في زمن الأزمات. قد نصبح أشدَّ لحمة من قبل، وقد يبتعد أحدنا عن الآخر. لنأملْ بأن تبقى الأمور منتظمة. تستحق هذا، بعد كل ما اجتزتَ من مصاعب.

- أشدُّ لحمة؟ لم تكن أبدا ملتحمة بي. كان هناك دوما قسم منها تحتفظ به لنفسها.

- هذا طبيعي، لا؟

- ولكن لماذا السر؟ لماذا تتصرف كما لو أنها ترتاب مني؟ لها أحيانا نظرة الغريق، مثل من يعيش حياة معلَّقة. لعلها لم تكن لي أبدا..

- النساء عميقات وسطحيات، في الوقت عينه مجنونات وعقلانيات للغاية. لهذا هنَّ يسحرننا. وحدهم الرجال بسطاء.

كانت عيناي مغلقتَين، وكنتُ متكومة في مَقعد في غرفة وِين، لكنني سمعتُ كلَّ شيء، تماما، وكنتُ غير قابلة لأي عزاء. كلُّ ما كان فيَّ من عزة ومن حماسة، من صمت ووحشية، اصطدمَ بجدار ديف. كنتُ نبتة متسلقة مجنونة تبحث عن الالتفاف بحبٍّ حول جذع الشجرة المعتمَدة، وعن الإيلاد، في مدى نسغها، بعضلاتها وعُقدها، لأزهار صغيرة من الأحمر القاني ذات الشفاه المنفرجة، وذات العطر الصبور والمتواطئ، والذي له غنى سري مثل نفَس طلح الغبار.

لكنني ما كنتُ أعلم إن كنتُ أنا التي تنزلق، من دون علمها، صوب طريق أخرى، والتي أبعدتني عنه، أو أنه كان هو الذي لم يعد يحتمل انقطاع اندفاعتي العاطفية صوبه، ولا حرارة نفَسي.

هناك اضطراب في انتظام الآلة. على أي حال، هي تطنُّ في أذني حاليا. كنت أندفع، على أي حال، في مراوحة لذيذة من النسيان، في حركة متراقصة وبهيجة لها بريق ملوَّن ساحر خلف عينيَّ المغلقتَين. لهذه الحركة إشراقات منحنية، فيما يباشر زعيق السيارات البعيد حوارا عصبيا بينها. إلى جانبي، حفيف من اللحم والعضلات، الذي هو ديف من دون شك، لكنه ديف هائلٌ ومتحرك، ديف متَّسِعٌ في ذاكرتي، لمَّا حملني بيسر فوق ذراعَيه، والذي قد يكون، في نوبة من الغضب، الغولَ في قصة «عقلة الإصبع»[30]، أو الذئبَ في «ذات الرداء الأحمر»[31]، الذي سيدفعني في هاوية من دون قاع.

لكنني وقعتُ فوق سريري، بين الشراشف التي تفوح منها رائحة نظافتها، فيما مضى المارد بعيدا إلى الطرف الآخر من الغرفة، وهو يلتهم الهاتف، فيما كنت أغرق، وأغرق مليا في رمال «الفاليوم» المتحركة.

(30) قصة للأطفال، و«عقلة الأصبع» هو الطفل المظلوم والمهدَّد بالموت بين أفراد عائلته الفقيرة (المترجم).

(31) قصة للأطفال تتحدث عن طفلة صغيرة يهددها أحد الذئاب (المترجم).

11

استيقظتُ حسب عادتي في وسط الليل، فمي ناشفٌ ومرٌّ. توجهتُ إلى المطبخ لشرب كأس ماء. كان ذهني ضبابيا بفعل المهدِّئات، لكن فكرة وافتْني بغتة، بقدر كبير من الوضوح، ثم تعلَّقتُ بها، وتسلَّقْتُها بكامل جسمي: سأذهب غدا للقاء فاطمة.

بقيتُ جالسة فوق كرسي مرتفع في المطبخ، مكرِّرة الكلمات ذاتها، بل رحتُ أتذوقُها مثل موسيقى، إلى أن سحبَني من تعجُّبي ضجيجٌ وإحساسٌ بالهبوط: كنتُ قد وقعتُ من الكرسي المرتفع فوق الأرضية المبلَّطة، وشعرتُ بكدمات في فخذي. وصلَ ديف، وسعى إلى رفعي، لكنني تخلصتُ منه بردة فعل مفاجئة، ونهضتُ وحدي. فهمَ معنى حركتي، وعاد إلى السرير من دون أن يتفوَّه بأي كلمة. أما أنا فجلستُ في الصالون مقابل مستطيل النافذة، وانتظرتُ طلوع الفجر بصبر.

كما انتظرتُ كذلك إزاء النافذة لمّا طلبتُ التأكد من ظهور الآلام الدالة تحديدا على قرب ميلاد وِين. كنتُ قد استيقظتُ مع بعض أوجاع المخاض، لكن بما أنني لم أكن أكيدة من الأمر، لم أوقظْ ديف، بل جلستُ في الصالون، ورحتُ أراقب الساعة. كانت الحركات خفيفة وغير منتظمة بحيث إنني خشيت من أن يكون إنذارا خاطئا.

إذذاك، تركتُ ساعتي، ورحت أستمع إلى الصباح، مدركة أنني، على أي

حال، سأعرف ما إذا كانت الساعة قد أتت أم لا.

كان كلُّ شيء معتما للغاية، ثم نفذت إلى العتمة شفافيةٌ مائلة إلى الزرقة. كانت السماء تتخفف من حمولاتها، بعد أن عبرتْ في مقامات الأزرق كلها، وفي اللحظة الأكثر شحوبا، والأكثر ثباتا، يتمزق الضوء عند أول احتكاك، عند أي شعاع يتنقل من فوق الجبال، وينفجر غناءٌ هائل للعصافير بين أشجار الكافور. غناء العصافير هذا، المجنون بفرح الصباح، وهذا الجلاء المتجدد في روعته كلها، هذا كان هديتي في اللحظة التي تأكدتْ بالنسبة إليّ القناعة الأكيدة بحصول ميلاد آخر، قريب.

وِين، وِين، لكَ لون الصباح الناعس في الأحلام، وعطرُ الجذور التي تحيا بفعل نسغها المتحرك، ولكَ نقاءُ غناءِ العصفور الذي لطختْه الشموس كلها. أنتَ قلبُ الصباح الذي يستيقظ حاليا مقابلي، في مستطيله الأزرق؛ وأنتَ موج العطور المتصاعد من الحديقة المتجددة، ونعومةُ التويجات التي تتفتح ببطء، الموصولةِ بعروق الأرض الحاملة معها رسالة الخصب الأبدية..

حين أصبحت السماء بيضاء تماما، واستيقظَ ضجيج الحياة أينما كان، وانطلقَ زعيق زمامير باعة الحليب، وترددَ صوت سيارات باعة جوز الهند في الأحياء ذات الشوارع المبلَّطة، وانتظمَ صوت الأواني المعدنية التي تُنظِّم وجبةَ النهار الأولى، كنتُ قد استيقظتُ تماما، إذ حان موعد الذهاب لرؤية فاطمة.

تولدت لديَّ هذه القناعة أثناء الليل، وهي أنها الشخص الوحيد القادر على فهمي. أعرف أن والدة ديف أحيتْ لديه فكرة التضحية، وأنهم سيتعاونون على مناوشتي من أجل أن أقبل، مثلما قبلتُ في حياتي، من دون صراع، من دون تمرد، من دون عصيان. على أي حال، ضد مَن تمردتُ في حياتي؟ كانت لي حياة موافقة لتطلعاتي في أن تكون لي حرارة

حميمية صغيرة، واجتماعُ الحواس الدقيق، مثل الذي للعصافير في عشٍّها، حول الخلية العائلية. احتجتُ دوما لوصاة يساندونني من أجل ألا أقع، وألا يكون وجهي مقابل الأرض.

كانت فاطمة، بشكل من الأشكال، أحد هؤلاء الوصاة، إذ جذبتْني مثل المغناطيس منذ لقائنا الأول، لأن فيها أعجوبة أكيدة. كانت وحيدة، من دون أقرباء مباشرين، ما خلا بعض أولاد العم والخال، الذين كانوا يوفٍّرون لها المسكَن كصَدَقةٍ منهم، فيما كان الجميع يحتقرها لأنها لم تكن سوى «قريبة معدومة» من عائلة فيصل الكبيرة والقوية. لكنها كانت تقوى على الاحتفاظ، في داخلها، بشعاع بسيط من الأمل، وبابتسامة دائمة، مُشبعة بنعومة مشرِقة كانت تغلب جميع الدموع التي ذَرَفتْها في حياتها، والتي ستذرفها بعد. كان في فاطمة هبة السعادة.

حاليا، أرى فيها عنصرَ توازنٍ يُعيد تنظيم أفكاري المضطربة إلى أمكنتها، مضيفة عليها شيئا من التعقل. فاطمة ذات الميزان التي كانت تنسى بيسر همومها الخاصة لكي تتكفل بهموم غيرها، وتمزقُها بفعلِ ابتسامتها. فاطمة كانت المرآة-الصورة لفاسنتي. لأن هذه، على الرغم من أبٍ محبٍّ أعطاها كل ما استطاعَه وعلى قدر إمكاناته، ومن عائلة دافئة ذات أضحيات كثيرة حولها، لم تتوصل إلا إلى زرع الشك والخزي حولها.

قالت لي إنني لن أكون سعيدة أبدا، أبدا، وإنني سأكون عَبْدة الرجال. قالت عن أمي: أنا أشفق على والدتكِ: تظن نفسها كبيرة وقوية، فيما هي الأضعف بين الجميع، والأسهل تعرضا للكسر. حتى إن والدها، الذي تحبه، لم يتلقَّ منها سوى هبة الحريق، ودموع الجمر. لكن فاطمة..

لم أحسن وصف وجهِ المحبة بأي طريقة، إلا إن أعطيته اسم فاطمة.

ناديتُ سيارة أجرة. لم يعد هناك من حساب بيني وبين ديف. الكلمات في العيادة مدَّتْني ببعض الحرية المؤقتة.

كانت فاطمة تسكن في الحي المسلم من بور-لويس. لم يكن جوُّه كثيفا، ثقيلا ومعطرا مثل الحي الصيني، إلا أن هناك تغيرا حصلَ فيه، من دون أن أقوى على تفسيره، وراء الحدود غير المرئية التي كنا نرى فيها المسنين، معتمرين طرابيشهم، الحمراء أو السوداء، ماشِين بخطى وئيدة، ونرى فيها شبانا صغارا، وقد وضعوا فوق رؤوسهم ما يناسب لأداء الصلاة، ونساء بعباءاتهن وبناطيلهن العريضة، وبرؤوس مغطاة بإحكام بمنديل أبيض. هنا أو هناك، كنا نقع أحيانا على «شادور». أولاد نظيفون، بطلَّة محتشِمة، بلباسات بيضاء، وصبايا بحجابهن المطلوب، يتجهن في هذا الوقت إلى المدرسة، حيث كانت تكتمل تربيتهن الدينية. باب المسجد مفتوح، فيما الرجال، إذ يدخلون إليه، يتركون صنادلَهم على المدخل من دون خشية: لن يسرقها أحد. أحياء داخلية مغلقة بإحكام، ممنوعة عن أعين المارّة والفضوليين، وتتصاعد منها روائح عامرة بعطر التوابل، من أطباق مطهوة بكثير من العناية الفنية والشرقية من قبل المسلمين. كانت هناك، في أحياء التجار المسلمين، أشجار من كل صنف ونوع. وفيها صمت النساء، وأحزان مقيمة في علبة المجوهرات المختومة، التي تُخفيها «البردة»[32] دوما على مبعدة من أنظار الآخرين.

كانت فاطمة تسكن في حارة تعود ملكيتها منذ نصف قرن إلى عائلة فيصل. تتداخل فيما بينها مجموعة بيوت، وهي موصولة ببعضها بممر أو بقطعة بنائية ذات مسلكَين ومصنوعة من زجاج. يشغل كل بيت أحد أبناء، أو أنسباء صاحب السلطة، والد فيصل، الذي كان قد اشترى، في البداية، هذا المكان، ونظمَه. كان يتاجر بصناعة الأقمشة في بور-لويس، ومات منذ زمن. كانت زوجته على قيد الحياة، وهي كتلة هائلة من اللحم، من دون حركة، تُغرق رقبتَها في جسمها، في المقعد المصنوع من

(32) هكذا بالعربية في النص الأصلي.

الأسل الهندي تحت الشرفة، بلباسها الأبيض المعتاد، حاملة مجوهراتها كلها مخافة السرقة، وكان فمُها محمرا بسبب شتلة «البيتل» (المخدِّرة)، التي كانت تقذفها، بعد مضغها، بانتظام في فناء الدار المبلط، وبدقة فظيعة في الإصابة. بسببها، بسبب عين النسر التي لها، العين الرمادية، شبه الميتة، التي كانت تراقب، طوال اليوم، الرواح والمجيء في فناء الدار، وبسبب الجنون الذي تحكم بروحها منذ سنوات بعيدة، انتهت حياة فاطمة إلى أن تكون مأساة.

كانت فاطمة نسيبة متأخرة للسيدة ذات السلطة؛ وكانت حالة أبيها الصحية المريضة، وأنانيته، ما حال دون زواجها، وهي ابنته الوحيدة. بقيت فاطمة وحدها، إثر موت أبيها. إنها فتاة عانس، مقيَّدة بما تتكرم عليه العائلة من عطف ورعاية. كانت تعمل سكرتيرة، وتتلقى أجرا زهيدا. ما كانت تملك لا بيتا، ولا أراضي، ولا عائدات. كان أبوها يعمل في أحد محال عمه الكبير، ولم يخلف وراءه، عند موته، أي ميراث. هكذا استمرت في العيش في غرفتَين، شغلَهَما في حياته، في جهة خلفية من الدار، وهو ما كان قد ناسبَها على الأرجح لولا أن جنون العجوز قد ارتدَّ عليها بطريقة عنيفة ومفاجئة.

ذلك أنه خطر في بال العجوز، في رأسها الرهيب ذي الفم القرمزي، أن فاطمة كانت تستقبل في المساء، حيث كانت تعيش وحيدة، عشاقَها. كانت العداوة قد حلتْ بينهما منذ زمن، وكانت خفية ما دام أن بقية من العقل كانت تُملي عليها أفعالَها وكلماتِها، وتجعلها تطرد فكرةَ أن فاطمة تخفف من عائدات العائلة بصورة أكيدة. ولكن بقدر ما كانت تهرم في سنِّها، كانت تتكاسل في أثوابها الشحمية، وتغرق في فراغ هائل متتابع من الأيام والساعات، متشابهٍ ومجدِبٍ؛ كان عقلُها يتدهور سريعا ويتحول إلى جنونٍ صابر وذي حيلة، دقيقٍ وقاسٍ، في الوقت عينه. جنونُها، كان

فاطمة.

كانت فاطمة لا تزال نضرة، وهي في الأربعين من عمرها؛ فاطمة ذات الضفائر السميكة التي تتهدل حتى الساقَين، فاطمة الهادئة والساكنة، من دون قسوة، الفريسة المثالية للعنكبوت الأبيض المعشِّش في عتمة الشرفة. كانت المسنَّة ترصدُها كلَّ صباح، بعد كلَّ ظهر، من أجل أن تقذف في وجهها، بصوتها الحاد، مجموعة من الشتائم:

- يا مومس، يا حقيرة! كانت تزعق ما إن كانت تتبين وجه فاطمة. وكانت تختلط اللغة الأردية مع لغة «الكريول»[33]، في تدافعِ كلامِها المتصل، والذي كانت ترافقُه أصابعُها المعقوفة، المحمَّلة بالخواتم، وانتفاخُ رقبتِها البيضاء للغاية التي تتشابك فيها سلاسل من ذهب، والحركةُ اليقظة لعينَيها الرماديتَين.

كانت البيوت المجاورة قد اعتادت على الاستماع إليها. ما إن كانت تشرع، حتى كان الضجيج يتوقف، وتسكت الجدران، فيما تنتشر في الجو شفافية أكيدة. كان الحي بمجموعه يرتجُّ على وقع مواعيد فاطمة، وغزوات فاطمة، وعربدات فاطمة. فيما كانت، برأسها المحجَّب، وركوعِها فوق سجادة الصلاة المستطيلة، تحاول جاهدة عدم الاستماع إلى هذا كله، منكفئة في غرفتها البتولة، المليئة بالعفونة.

بعد عدة شهور، وجدت العجوز منفذا جديدا لحقدها. باتت تتعرَّض لتشنجات، ما إن تُبصر فاطمة. كانت تتصلب، حتى إن مقعدها كان ينقلب، وكان جسمها يدور على نفسه تحت الشرفة مثل كتلة متلبدة، وكان الدهن في جسمها يخفِّف من وقع الضربات. كانت تزعق فيما تقبض على حنجرتها بيدَيها، على أن فاطمة أصابتْها بعين الشر، وأنها ستسحب منها قلبَها بيدَيها العاريتَين.

(33) هي لغة مولدة، خليط من لغات متعددة، وانتهت إلى أن تكون لغة قائمة في حد ذاتها (المترجم).

صراخ الغضب انتهى إلى أن يكون حشرجات موت. كان أولادها يعتقدون، بقليلٍ من الأمل الباطني، بأنها ستصاب بجلطة، وأنها ستموت سريعا. لكن شيئا من هذا لم يحصل، كانت تعيش من دون أي مصيبة، كانت تهدد بحرمان أولادها من الميراث لصالح جمعية إحسان، إن لم يَعملوا على الانتهاء من فاطمة. قام فيصل، بما أن فاطمة لا تقوى على العيش وحدها (إذ تتضرر بذلك سمعة العائلة)، على ترتيب القسم السفلي من البيت مثل شقة لها، كيفما اتفق، فيما كان بيت الخلاء المغطى و«الدوش» في جهة خارجية من البيت، خلف إحدى الأشجار. هكذا باتت فاطمة تلازمُ غرفتها، وتعيش في جحرها، لمّا لا تكون في مكتب عملها، فلا تخرج إلا لقضاء حاجتها في بيت الخلاء، ويقوم أحد أفراد العائلة بإلهاء العجوز لكي لا تراها.

قالوا للعجوزة إن فاطمة تركت البيت. لكنها بقيت مصرّة على قذفها بأشنع الشتائم بصوت ضعيف، ولمّا تنجح فريستها في الهرب منها، كانت تستغرق في نعاس يسمح للدار الكالحة بأن تنعم بشيء من السلام الخادع. هذا من دون أن تدرك العجوز أنها وضعت فاطمة في سجن مدى الحياة.

لم يكن لها سوى ثلة من الأصدقاء، فيما خلا بعض العلاقات السطحية التي تنشأ في مكتب العمل، حيث تَضبط التراتبيةُ الصارمة بين الموظفين، والفروقُ الاثنية، الصداقاتِ وتحدُّ من صِدقها. عرفتُ فاطمة في إحدى زياراتي القليلة لفيصل، ثم شعرتُ، بين زيارة وأخرى، ورسمتُ فوقها هالة من مأساة، راغبة في سبرها. دعوتُها ذات يوم لتناول الغداء، ولمّا شعرتْ بأنني أستمع تماما إليها، راحت تتكلم. تكلمتْ وبكتْ، بكتْ وتكلمتْ خلال ساعات، من دون أن تنتبه إلى مرور الوقت، متناسية الخجل؛ كانت تتكلم فيما كنت أرتعب من جراء توالي الكلام الدال على حاجتها للحب، والصحبة، والتفهم، وعلى حاجتها بل نهمها للحنان، الذي كانت معدومة منه.

أخذتُ بيدها. ما كنت أريد أن أقول لها أي شيء، إذ ما كانت الكلمات لتحلَّ شيئا، إلا أنها شعرت بأن هناك ما يتعدى اللطف في هذا التصرف، أكثر من الصداقة؛ كان هناك نوع من العَقْد بيننا، نوع من الشراكة الأخوية.

كنا نلتقي في الغالب في بور-لويس. كانت تأتي إلى البيت في بعض أيام الآحاد، وكانت تلعب مع وِين. لكنني كنت أنتقل أحيانا للقاء بها في جحرها، وكنتُ أتحدى بذلك الحضورَ المثيرَ، الذي كنتُ أخمِّن وجودَه، مثل برق شاحب، تحت الشرفة؛ كنت ألتحق بفاطمة في عتمة لا تخفف منها لمبة كهربائية واحدة وصفراء معلَّقة في السقف، والتي كان لنا أن نشعلها حتى في النهار. كنت أذوق وجبة «البرياني»[34] معها، والتي كانت تعدُّها باقتدار فوق الموقد الكهربائي الصغير. وكنت أقرأ، فوق الجدران التي طالتْها العفونة، فوق الأرضية التي تمتدُ فوقها، بشكل نافر، فوق سجادة مصنوعة بالصنّارة اليدوية، قامتْ بنسجها بنفسها، كنت أقرأ فوق هذا كله عمقَ تعاستها وعزلتِها.

حين وصلتُ إليها، طالبَني سائق سيارة الأجرة بمبلغ أكثر من المعتاد. دفعتُ له ما طالبَ به من دون اعتراض.

كانت فاطمة ممدَّدة فوق سريرها، بنظراتها الغائمة، محدقة في السقف. وقفتْ مباشرة، واتجهتْ صوبي بوجهها القلق. ضمتْني إليها، من دون أن تتفوَّه بأي كلمة، أمسكتْ بي على هذه الصورة، مثل الحطام الذي كنتُه، خلال لحظة مديدة.

جلستُ إلى كرسي، أمام طاولة «الفورمَيكا»[35] الصغيرة والمتداعية، حيث تتغذّى وتتعشّى، والتي كانت تستخدمها أيضا مثل مكتب لها.

(34) وجبة شهيرة، في المحيط الهندي، تتألف من أرزّ وتوابل ولحم وبيض وخضار (المترجم).

(35) لم تُعرف هذه المادة، الرائجة للغاية اليوم، قبل القرن العشرين، فاستُعملت، بداية، بوصفها عازلا ناجحا للكهرباء، ثم امتدَّ استعمالُها ليشمل التزيين الداخلي للبيوت (المترجم).

جلستْ إزائي، منتظرة كلامي، مثلما حادثتْني، هي، ذات مرة، في المطعم البائس، الذي أصبحنا فيه صديقتَين. ثم قالتْ بصوت هامس، لمّا وجدتني لا أقول أي شيء:

- لكِ أن تعرفي أنني صليتُ كثيرا من أجل وِين، عساه ينجو، إن شاء الله[36].

تنبهتُ عندها إلى ما جئت أقوله لها:

- أجل، أعرف أنك صليتِ، وصلى رجل الدين (الهندوسي)، كما قتلتْ مارلين دجاجة سوداء، وأتتْ عمّة ديف معها بحرز، والتزمَ ديف بوعد، أما أنا، أنا الأم، أنا التي وهبتُه الحياة، فماذا فعلتُ؟ ما بإمكاني فعلُه؟

نظرتْ إليَّ متفحصة وجهي، ومندهشة:

- أهناك ما هو أقسى من صراخ الأم، وأكثر عمقا، وأكثر قسوة؟ إنها صرختكِ، التي ستُسمع قبل غيرها، صرختك يا أنجالي! لا يمكن مقارنة الجزع الذي في كل دمعة من دموعك بأي شيء آخر. وها أنتِ تحصرينها إلى أن تنفجر فيك، إلى أن تصبح ثقيلة ومسبِّبة للدوار في داخل جسمك.

- أجل، إنها تحرقني. لا سبيل لي غير هذا.

سأمضي، ذات يوم، سأمضي في أحد الأيام، مثل شبح يرتدي هذا اللون الأمغر، والمصفر، هذه الطبقة اللونية التي تصبح العالمَ الوحيد لمن هم يتبعون طريق «دروبادي»، ويسعون إلى استبيان غطاء النساء، بين اللهب، الذي يمتدُّ فوق الجمر. ولكن قبل الوصول، الطريق قاسية، متعرجة.. قبل ذلك، هناك الامتحان الصامت للإيمان.

كنت أدقُّ على الطاولة بقبضتي. كانت لدي رغبة في أن أتمزق. الصخرة، الصخرة، سأكون صخرة.

- ديف، هل طلبَ منكِ شيئا بعينه؟ قالت فاطمة.

---

(36) هكذا بالعربية في النص الأصلي.

- أجل.. أوحى لي بذلك، ما فرضَ عليَّ أي أمر. لا، لن يفعل ذلك. ولكن يوم أمس.. أمس بعد زيارة أمه، قال لي إذا.. إذا مضى وِين.. فإن هذا سيكون غلطتي..

- ما ينتظر منكِ؟

- يريد أن أمشي فوق النار.

هالةٌ من جمرٍ حولي، مثل فاسنتي. هكذا يلتقي مصيري بمصيرها. هزَّتْ فاطمة رأسها.

- هذا يستدعي تحضيرا طويلا. أنتِ لم تقومي بهذا من قبل. لا يمكنهم فرضه عليك، سيكون الأمر قاسيا عليك.

- لو كنتُ متأكدة من النجاح، لكنت فعلتُها، لكنت أفعلُها، يا فاطمة. إلا أنني ما عدتُ أؤمن بهذا منذ زمن بعيد. عليَّ أن أتدبر أمري مع إيماني. أخذتني ارتجافة عصبية، لكن عليَّ أن أمضي حتى النهاية. أن أواجه هذه الحقيقة في أعماقي.

كنت أظن أنني مستعدة لبذل جميع التضحيات من أجل ابني. إلا أن فكرة.. أن أمشي فوق هذا السبيل المشتعِل، فوق درب الجمر، تجعلني مجنونة، وأنا مرتعبة. أنا خائفة إلى درجة أن لدي رغبة في الفرار، في تركِ ديف، والبيت، والرحيل..

- ولماذا؟

- إن قضى وِين.. فإنني لن أبقى بعده. هذا ما أقسمتُ عليه. الباقي لا قيمة له. العار، العزلة، المنفى.. أعرف الآن أن ديف لم يحبّني أبدا. لم يعرف أبدا من أنا. عشتُ إلى جانبه مثل ظل. لم يكن لي وجه أبدا. حان الوقت لكي أتعلم أن أكون موجودة، ولو للحظة، من أجل هذا التأجيل القصير الذي تركوه لي.

- ليس لكِ أن تستعملي وِين مثل حجة للحياة أو للموت. عليكِ

أن تتصالحي مع نفسك. توقفي عن أن تشعري بالعار من دون سبب. لكِ، ربما، وبكل بساطة، أن تتعلمي حبَّ نفسك. تتكلمين عن الإيمان. أتعرفين أنك من هذه الكائنات التي تلامس الأساسي، من دون علمها، والطقوس المقدسة التي للأرض؟ أنت ووِين تنتسبان إلى العِرق عينه. هناك حقيقة، فيكما، تقوم بتحويلكما.

- هناك «أنا»، في جهة ما، حقيقية وتستحق ربما أن تعيش، لكنني لا أعرف أين هي موجودة، ولا من تكون، ولا ما ستقوم به إن أُنقذت من جميع هذه الانفجارات، هذه الأزمات جميعها، وإن بقيت وحدها في مكان ما، من دون أحد.

- انظري إليَّ، قالت بشكل مفاجئ. ألا تتعرفين إلى التي قمتُ بوصفها؟ أنا، لا أهل لي، لا إخوة، لا أخوات، لا زوج، لا أولاد. ليس لي مكان أعيش فيه بحرية، ولا مكان أمتلكه بنفسي. أنا فقط مثل جرذ في ثقبه، حيث لا قدرة لأحد على إخراجه منه، ولكن إن تمَّتْ مباغتتُه في الخارج، فإنهم يسعون إلى قتله. ألا يتوجب عليه، ربما، وبكل بساطة، أن يترك نفسه للموت، أن يتمدد ببساطة فوق الأرض، وأن يدعهم يسحقون جمجمته؟ ما يبقى إذذاك من فاطمة؟ لا شيء، صفر، عدم؟ لا، يا أنجالي، فأنا أصارع، أخضع وأبقى على قيد الحياة، لأنني أعتقد بأن هناك شيئا آخر، شيئا مزيدا في هذه الحياة غير فقرة التداعي هذه؛ يجب أن تتعدى قيمتي هذه، يجب أن أكون، على الأقل، في خدمة شيء ما. في انتظار أن أجد حلا للغزي الشخصي، فإنني أنتظر، وأصبر وأصلي.

كانت صلبة وحقيقية. كانت بيتا مضيافا يحلو لنا أن نندسَّ فيه طلبا للحنان أو للاختفاء. ومع ذلك، فهي الأكثر فقرا. كان هناك غنى يشعُّ بالنجوم، ويصدر عن شعرها الهائل، الذي كان في مقدوره تغطيتها كلها.

كانت قادرة على إيقاظ النور حيثما هو موجود.

لم أكن أنا، ذلك الكائن المحظوظ الذي تتحدث عنه. الكائن ذو الأجنحة، كان هي. كنت أحسدها، كنت أريد أن أكون مثلها، قريبة وحنونة، أعيد كل شيء إلى مقاساته الطبيعية. كنت أحسد قدرتها على النسيان، على التغاضي عما كان، فيها، يثقل على الروح والقلب.

- لا أحد يفهم أفضل منك، قلتُ لها، الصراعات الداخلية عند الذين لا سلاح لهم غير جُبنهم. ذلك أن هذا هو تعاستهم أيضا. نخوض هذه المعركة الأبدية ضد أنفسنا، ونحن محكومون بالفشل. لا جواب -لكِ أن تعلمي- إلا للذين لا يطرحون أسئلة. ولكن ما دام هناك شكٌّ فيَّ، فإنني سأتخيل أيضا أن التضحية والتمويت هما، في بعض الأحوال، الوسيلة الأكثر فعالية للوصول إلى الله. بما أن الأمر يتعلق بابني، فإنه يتوجب عليَّ، أن أكون المسؤولة، أن أكون الحارسة، وأن أقول لنفسي، بعيدا عن معتقداتي العميقة، إن عليَّ القيام بذلك..

نظرتْ إليّ تماما في عينيَّ، تسعى إلى ألّا تمدني بقوتها الخاصة، بإيمانها الخاص.

- إذا، افعلي ذلك، قالتْ لي، ممسكة كتفي. افعلي ما يطلبونه منك.

- حتى لو كان عليَّ مواجهة الفشل؟

- كلهم يخشون ذلك، لكنهم، ما إن تتمكن منهم اندفاعة الصلوات، فإنهم ينسون كل شيء، ولا يشعرون بشيء. ستفكرين في وِين، وستنجحين في ذلك. افعلي ذلك، أنجالي.

في العتمة المصفرَّة، كانت عيناها تلمعان بشكل غريب. ديف، وِين، أنا، وحياتها كنا نسكن في هذه النظرة، متوقدين ومتحركين مثل عالم قيد التشكل. كانت هناك أيضا قرون من التقاليد تصدر عنها، وتُقيم سلطتها علينا. كنا نَقبل بها، أو كنا نَرفضها، لكنه لم يكن في مقدورنا تجاهلها. كان هو ذلك النداء الذي سمعتُه مثل صوت أجراس في عمق نظرتها.

12

كان لي أن أمشي، أن أتجول لعدة ساعات في شوارع بور-لويس، بما أن الوقت هرب من إطار ساعة يدي، وغيَّرت الشمس من انعكاسها فوق وجهي ومن شدته. أتذكر نورَها، المباشر والفج في نظري، إذ يستثير في الإسفلت أبخرة مليئة بأنواع السراب، وبالوجوه. أتذكر ضجيجا اجتمعَ في سلسلة متواطئة لمواجهتي. عند الاقتراب من «البازار»، اجتاحتْ أنواع الضجيج حواسي، مثل الآلاف من المتدافعِين المتشابكِين في اتجاه الوسط المركزي لبور-لويس. تبينتُ، في الظلال المعتمة، بائع الأدوية الطبيعية، المحاط ببطاقاته البيضاء الصغيرة التي تشير إلى النباتات المعالجة للإسهال، والجنون، وداء الزهري، والدُّمل، والأورام، وألم القَطَن، وألم العنق، وأوجاع الرأس، والغازات في المعدة، والحَبَل غير المرغوب فيه. جميع الأمراض، كلها، من دون مرض ابني، الذي لا يُشفى، ولا يُشفي مرضي، مرضي الداخلي. كنتُ أود لو أنني ألتحقُ بالمتدافعين، وأن أسلِّم أمري لغيري، من دون تفكير. كنتُ أود لو أستغرقُ في سَيل من الوحل، وفمي مليءٌ بالنمل الأحمر، ومنخاري برائحة الأرض اللاذعة. كنتُ أود لو أكون فما لغرقي، أنا التي لي، حسب ديف، نظرة الغرقى. أنتظرُ الحركة، الدفعةَ النهائية التي سترميني في الماء. أنتظر اللحظة، الثانيةَ الأخيرةَ والمسعورةَ، التي تسمح لي بجميع أنواع الصراخ. هنا، نمشي، من دون أن نتقدم. نعمل من

دون جدوى لكي نمحض معنى للحياة، ومن دون أن نتمكن من الحقيقة. كلُّ شيء يجتمع بغيره لكي يدفعنا في وجهة معاكسة للنجوم. وها نحن، بضربة بسيطة من إصبعنا، نقف في مواجهة قدرنا، من دون أمس، من دون غد، من دون خيار. ليس من غدٍ غيرُ فراغِ نظراتنا، والفجوةِ الكبيرةِ التي تتشكّل في القلوب، وتتعاظم. لا مستقبل لي غير الدقيقةِ القادمة التي يعيشها ابني. أبعد من هذا، هناك سماكة الريبة، وتفلُّتُ الأشياء غير القابلة للمراقبة. ثم هناك فاسنتي التي تنتظرني ربما، والتي لم تعرف روحُها الراحةَ بعد.

وصلتُ إلى الملّاحات، عبر هذه الشوارع الصغيرة التي ترشح جميع أنواع الرطوبة، وجميعَ أصناف العَرَق في بور-لويس. هنا تأكدتُ من أن المدينة احتفظتْ من ماضيها بشيء سليم؛ كما تولد فيَّ شعور غريب بالنصر، مثل غزوة، مثل انتصار على التفكك الأكيد لجميع الأشياء، إذ نظرتُ إلى ألوان الملّاحات بعينَي طفولتي. الماء مسطَّح مثل ظهر يد، وله طمأنينة الفجر، من دون تجاعيد، من دون حركات، فقط هنا وهناك جزر صغيرة من الرمل، تستغرق فيها سلطعونات بيضاء. أرى بألوان السماء ذاتها، المنحلة مع ألوان البياض والخضرة، إلى لوحة يابانية، بالباستيل، تبدو السفنُ فيها، ذات الأشكال الثقيلة، ذات المواد التي من حديدٍ ورصاصٍ وصدأٍ، غير واقعية.

بركٌ صغيرة من «المازوت» تعوم فوق الماء، من دون أن يختلطا. خطاطيف البحر تحلّق هنا، قادمة من الجزر القريبة، من دون أن تحطّ. إنها تشترك بدورها في اللوحة، ويتماشى تحليقُها مع ألوان الملّاحات هذه، ومع خفّة الرمل المغبرّ، ومع الشفافية الصدفية للسلطعونات الصغيرة والحيوية، ومع النفَس المحمَّل بالملح والآتي من البحر. رائحةُ ملح، وطحلب، وسِماد الغمون، من الأعماق المنقوعة لهذا البحر الراكد؛ رائحةٌ

ثقيلة وبعيدة، تزداد أكثر فأكثر لمّا يختلط بها الحنين ومطبّات الماضي. كانت نزهاتنا، هنا، فيما والدي ووالدتي جالسان، يبتسمان إذ ينظران إلينا، والدتي بـ «الساري» الوردي الفاتح والمتماوج مع النسيم. شيام وأنا، أقدامنا العارية في الماء، نقفز من جزيرة رمل إلى أخرى، غارقين فيها إلى منتصف الجسم، شاعرِين بطراوة الرمل المبلل حول كواحلنا. الوالد والوالدة يبتسمان، يعيدان، لهما، صور الماضي الأبعد، ويجدان سهرات مسروقة من رقابة الأصهار، ولحظات معزولة من الحرية، حيث كان في إمكانهما شبكُ اليد باليد من دون إكراهات، فيما يغنّي والدي ألحانا هندية قديمة، ويخلق حولنا الوهم البطيء والسريع بحبور شديد، وباكتمالٍ لن يستديم، بكل أسف. كنا في فقاعة من واقع متفلتةٍ من حلم. هذه المفارقة لن تكون ذات معنى في وقت قريب، لأن هذه الفقاعة ستنفجر قريبا، عند انتهاء اللحن، حين ستشتد رياح الإعصار.

هذا الإعصار، الذي كان ينتظرنا ما وراء فقاعة السعادة الخارجة على الزمن، كان فاسنتي. لم يبق لنا وقت كثير، كما بدا لي أننا تحدثنا عنها في هذا النهار، وأن أمي تحدثت مع أبي، للمرة الأولى، عن زواج ممكن بين فاسنتي وشيام. شيام ضحكَ لهذا، ضاغطا على منخاره، وهازا حلقة سوداء على جبهته. في الرابعة عشرة من عمره، بدا الحديث عن الزواج سخيفا.

- أأنا، أتزوج؟ قال، مع هذه المجنونة، فاسنتي؟

ضحكتُ بدوري.

- ستُمضي أيامَها في التأمل، أليس كذلك، يا شيام؟ وبدل أن تعدّ لك وجبة الأكل، مثل زوجة صالحة، ستجبرك على الصيام!

حين نكون بعيدين عن فاسنتي، نفتقد الاحترام، الخائف بعض الشيء، الذي نبديه إزاءها، ولا نعترف لها أبدا بأننا نعتقد بها مقدار ما تعتقد هي بنفسها. هزَّ والدي رأسه:

- أنت تعرفين، يا ياشودا، أن الأمر، بالنسبة إليَّ، يتعلق بما قد كُتب. إن كُتب أن لابننا ولابنة أخيك أن يتزوجا، فهذا ما سيحصل..

- أليس لكِ من اعتراض على هذا، على ما أفترض؟

كان ينظر والدي إلى البعيد، ثم رأيتُ الماء وسماء الملّاحات يلتقيان في عينَيه، يختلطان فيهما، ما يُكسبهما نعومة قريبة من الدمع. كان يبتسم، لكن شيئا من العفوية كان يَظهر في هذه الابتسامة.. كما تولدت لديه سخرية من وعيه بحتمية فشله أمام الحياة، وفي مواجهة القيم المادية التي تضبط الحياة. والدي، المتأمل، الطفل-النجم، ضاع فوق أحد الكواكب، وفي عالم، غريبَين عليه. لهذا كان واعيا، واعيا بشكل بارد، وبما لا يفيده أبدا. ذلك أنه ما كان ليتغير من أجل أن يتكيف. لم يكن على هذه الصورة.

- لكي أكون صريحة معكَ، قال لي برفقة الابتسامة المتهالكة والصغيرة، أجدُ نفسي في شيام، وأجدُك، أنت، في فاسنتي. ولكن، حيث استطاعت تربيتُك إعدادكِ للزواج، لدور المرأة الخاضع بشكل ما، فإن تربية فاسنتي أبقتْها حرة تماما. سترغب في كل شيء، ستريد امتلاكَ كل شيء، ولن تخضع أبدا. بينما سيكتفي شيام بالقليل، بالوسط من الأشياء، بالفاتر، وسيتوصل، مع ذلك، إلى البناء فوق هذا كله، إلى بناء أصلب للسعادة، وغير قابل للإفساد.

نظرنا إليه باستغراب. كان يتكلم قليلا في العادة، من دون أن يفصح أبدا عن أفكاره العميقة. كان يراقب البعيد، من دون أن ينظر إلينا، مبتسما دوما بعينَيه وشفتَيه، بصحبة حزنه الصامت، فيما كنت أشعر بعاطفة هائلة وشاسعة تجاه والدي.

لكن أمي تجهمتْ، ما إن تبينتْ هذا الواقع الذي تكشفَ ولو القليل منه. مسَّدتْ شفتَيها، وجعلتْ نظرتها أكثر حدة. لحظة السكينة انتهتْ.

شَعَرنا كلنا بهذا، والبحر شعرَ بهذا بدوره، إذ اهتزتْ أعماقه، وعادت السلطعونات الصغيرة العارية إلى ثقوبها. كنا نعرف ذلك، على أي حال، أي أن السعادة لا تدوم. ولكن ما كنا لا نعرفه، هو أن الأدهى قريب.

انتهى اللحن. أبحثُ، في هذا المكان الناجي من تقلبات بور-لويس الصناعية، عن معالم، عن علامات، متفرقة هنا وهناك، أستدلُّ بها على «نحن» الرباعية الأطراف، التي لم تعد موجودة. كان هناك خيط وردي-أحمر من «ساري» أمي معلق في غصن شجرة، من دون أن يراه أحدٌ غيرها، هذا الخيط الدقيق للغاية، المشعُّ للغاية، والعنكبوتي للغاية.. كان نداء من ذلك الماضي، الذي ينمحي ببطء فوق صفحته الحريرية. كان ورديّا-فضيّا متناغما مع جِلدها؛ لعلها هي، من دون شك، من أبقتْ، هنا، شيئا منها، من شخصيتها، جزءا من ضحكتها، التي، ما إن انطلقتْ، تبلورتْ في هذا الوردي الحيوي العالق في الغصن. أبعد من ذلك، فوق المقعد الذي اعتادوا الجلوس عليه، سمعتُ صدى أغنية، بعيدة للغاية، تكاد تُسمع، كان والدي يدندنُها تبعا لعادته.

إنه صوت والدي، وقد أضعفَه الزمن والمسافة، إنه هو. بقيتُ جالسة فوق هذا المقعد، أعيدُ إدارة خيط أمي الفضي فوق إصبعي، مستمعة للصوت من دون جسم والدي؛ لم يبقَ غير أن أجد شيئا من شيام، ومني، لكي يكون المشهد كاملا، ويكون مدارُ أفقِ العائلة منتهيا. الدورة مكتملة نهائيا.

لمّا اتجهتُ أبعد، وقعتُ على شيام. كان أبعد، على جزر رملية صغيرة؛ كان يركض مجتازا بقفزاته ألسنةَ البحر، جامعا عدة سلطعونات بقبضة واحدة، ثم لا يلبث أن يضعها في سلة. كان وجهه مبتعدا، فلا أقوى على استبيان ملامح هيئته، لكن قامته، وشكله، وبنيته العضلية، كانت تدل عليه. نظرتُ إليه مطولا، وكنتُ أحب حركاته، والإناقةَ التي في قفزاته،

ورشاقةَ سيقانه الطويلة العارية، ولكن عندما ناديتُه: شيام، انتفضَ بسرعة، ثم هربَ على عجل، حتى إنه بدا يختفي في ألوان الأزرق والأبيض، فما عاد يظهر أي شيء منه. لا ظل له، لا صمت، ولا أثر فوق الرمل. ما بقي هو الصورة اليابانية، من دون تجاعيد أو حركات، كما بدا أن يد أحد الفنانين عبثت بالصورة، فمحت التخطيط بضربة نارية سريعة. لمّا بحثتُ عن نفسي، أنا، في هذه الزرقة الراكدة، التي نجتْ بشكل عجائبي من قبضة الزمن المدمِّرة، لم أجد شيئا سوى مرآة مكسورة في رزمة من جذور، تحت شجرة.

قعدتُ فوق الرمل. كان الملح يصعد من البحر، ويعلق في شَعري بغباره الأبيض.

مرة أخرى، بدَّلت الشمس، في نزوةٍ من نزواتها، موضعَها. هذه المرة، عادت إلى الخلف، كما لو أنها تريد إنكارَ الوقت الذي أمضتْه في الملّاحات، كما لو أن وقت الملّاحات لا يتعلق بالشمس، ولا بالتناوب بين النهار والليل. لكن المرآة المكسورة كانت رسالة كاشفة، رمزا للأشياء التي لا تعود، للعودات المستحيلة. إنها ليست سوى علبة من الأوهام. يتوجب غلقُها من جديد.

من الحُسن أن نكون ما نحن عليه، في نهاية المطاف. أن نكون خيطا من حرير، صدى صوت، سرابَ طفل. هذا كله ما ينعكس في مرآة مكسورة. للملّاحات، في راحتها، حركة تشبه أصوات الترغل. والدي عاد إلى بيته، مستريحا في مشّايته. أما شيام فقد وجد سعادته الصغيرة في «القليل»، مع مرغريت التي لا تعدو كونها بركة من أوهام. إلا أن فاسنتي، أمي وأنا، لا نزال أسرى ما نطلبُه من أنفسنا، أي الكثير منها، بما أننا لم نحصل، حتى الآن، على شيء مِما كنا قد طلبناه. لو رغبتُ في أن أعيش، طوال حياتي، من خلال غيري، لكنت سعدتُ بما هي عليه حياتي مع ديف. لو كانت

لي موهبة، أو هبة، أو أي غنى مخفيّ، يعود إليَّ وحدي، لكنتُ أمسكت بإمكان السعادة. رفضتْ فاسنتي أن تكون زوجة حارثٍ. هي اختارت. أنا اخترتُ عدم الخيار. تركتْني أستسلم لغيري.

ماذا عن حِرق الشمس هذا، اليوم، فوق جنبي، فوق شفاهي؟ أيكون ثمرة ونتيجة لعدم الخيار هذا؟ لنا أن نُلام عمّا نفعله وعما لا نقوم به، وعن الأقوال التي نتلفظها، وعن التي تَبقى في ترددها، وعن نواة الحقد التي تُولِّد فينا قساواتٍ وخياناتٍ، وأنانياتٍ لا واعية، فيما نحن قادرون، في ناحية أخرى، على القيام بتفانٍ قوي، على منحِ ذواتنا وماهياتنا، فوق راحة يدينا الممدودة، من أجل طفل، من أجل رجل. يحدث أحيانا أن يختلط الأمران، ويكون فعلُ التفاني فعلا أنانيّا للغاية.

بات الهواء فوق الملّاحات عاصفا. فقاعة الزمن الوهمي انبنتْ من جديد. ها هي الشمس تسود، وخطاطيف البحر تزيد من سوادها، والبحر يتبخر، والرمل يصبح وحلا. ها هو صوتُ طبلٍ يأتينا من بعيد، من هذه الدروب البعيدة، من تلك التي لا يرقى إليها الشك في أنها دروب «كونستانس-لا-غيتي»، حيث تتجدد حياة الطقوس الأكثر عتمة حول الثلاثي الذي لم يرده أحد في هذا الوادي: فاسنتي، شيام وأنا.

إنه يوم «مارديفيرين»[37]، حيث الوجوه متوقدة، ومبللة بعَرق القديس. إنه يوم التضحيات التي يعبدُها القرويون؛ ولكلِّ شيءٍ أن يكون موفقا من أجل تهدئة غضب هذا الكائن الذي يتحدر من منطقة الظلمة. تتعالى الأصوات من كل مكان: في يوم العاصفة هذا، تتعالى الصرخات المشحوذة للديكة الحمر، ومواءُ الأجداء غير الأكيدة من مصيرها، ونعيبُ نساء من «الكريول»، وقد اندمجن في الشطح. هذا ما بلغ الأشجار في حفيفها، حيث دارت فيها الحركة ذاتها. وتقافزَ النهر فوق صخوره

(37) من معبودات شعب التامول الشعبية، دوهو أحد الأبطال في تاريخهم (المترجم).

الدقيقة. وأعلنت اندفاعات الطبول عن حصول الطقس.

المذبح الصغير في عمق الغابة له هيئة عادية إن لم نلحظ العشب البري والأسودَ، وقد علا حوله. يبدو كما لو أن العشب تجمَّد بفعلِ الدم المراق طوال سنوات وسنوات، هذا الدم الذي استحال إلى حمم، ثم إلى صخور. حتى الأَجَمات اتخذت هيئات وألوانا موافقة، فيما تئزُّ، هنا، حشرات كبيرة، منتظرة، مثل أكلة لحوم البشر، وبفارغ الصبر، التضحية التالية.

- يتوجب علينا أن نمضي لرؤية هذا، قالت فاسنتي. تفرجتُ عليه سابقا، أثناء فترة تأملي. ثم فتحتْ شفتَيها الحمراوَين قليلا، وتنفستْ بين أسنانها الهواءَ الرطب.

- ما يكون هذا؟

- «مارديفيرين». أعتقد أنه هو، على الأقل، فأنا ما كنتُ أراه بعينيَّ، بل بإحساس داخلي. شعرتُ به، عرفتُ ذلك، رأيتُه بمعنى ما، لكنني لا أستطيع وصفه، فهو مرعب للغاية.

بقدر ما كان النهار يمضي، كان قرعُ الطبول يتلاحق، وتصبح فاسنتي عصبية أكثر. كانت تُطلق تقطيبات وجه من دون أن تقصدها، وتتقافز من دون سبب، وتشدُّ على شعرها، وتنتزع منه شَعْرة إثر شَعْرة. شرائط سوداء طويلة كانت تتبعُها، تعلقُ بالأشجار، وكانت فاسنتي تفقد أجزاء من جسمها في مدى الطريق، فيما كان شَعرها يُشدُّ ويتمزق.

في البيت، الخال سنجيفا يُقفل الستائر والأبواب، فيما يبدو على وجهه الهمُّ. يُشعل الكافور وعيدان البخور، ويصلي بصوت عال من صلوات «المنترا»[38].

- شرحتُ لهم أكثر من مرة، يقول لنا، أن هذه التضحيات غير لازمة. الآلهة شيفا، وموروكا، وكريشنا، يحافظون علينا، ويحموننا. إنهم يفقدون السبيل الصحيح مع «قديسيهم» هؤلاء. إنها منطقة الظلمة التي تغطيهم،

(38) صلوات هندوسية يرفعونها للإله المعبود، لجلب السكينة (المترجم).

وتُفقدهم البصر السليم. إنهم أعجز من أن يفعلوا غير هذا.

فاسنتي تدير رأسها صوبه بقوة:

- إنهم الأكثر قوة، تقول، إنهم هم الذين يمدُّوننا بالقوة. إنهم يَعُون أحوال الناس أفضل من الآلهة البعيدة، وغير الموجودة على الأرجح، والتي نعبدها من دون جدوى.

كان وجهُ أبيها أقرب إلى وجه ميت، مصعوقا بما سمعَه، مِما هو، في حسابه، عقوبة من دون نقض لوظيفته الكهنوتية، ولكونه والدها.

- هذا غير ممكن، يقول. هذا غير صحيح، يا شيام، يا أنجالي، أهذا فعلا ما قالتْه، وعن «قوتنا»؟ أهل القرية قالوا الحقيقة إذا. إلى هذه الدرجة كنتُ أعمى..

في الخارج، اقتربَ قرع الطبول. إنهم يتجهون صوب النهر.

سنجيفا ركعَ، وأحنى رأسَه مثل مُدان. فاسنتي لا تراه، لا ترى أحدا. إنها أسيرة شيءٍ غامض متحدر من الوحل. لم تعد هي ذاتها، بل جمع متحرك من الانفعالات، من الإحساسات، أشبه بمحيط له قمم فضية وبطنٌ عامر بالعتمة. كانت تتحول شيئا فشيئا تحت أنظارنا المنذهلة؛ ليس بصورة جسمانية، ولكنها باتت أخرى، من ناحية تعبيراتها، وتصرفاتها، وطباعها.

تفتح الباب، تخرج إلى المستطيل الضاج بين الأشجار، تابعة الطبول والأناشيد، فيما بات الهواء صاخبا، طاويا أغصان الشجر بأصابعه المبلَّلة.

يتبعها الخال سنجيفا بنظره، ثم يقول لنا:

- امضيا معها، يا ولديَّ، اذهبا، اتبعاها، حافظا عليها. هناك قوانين غير قابلة للرد، هذا ما عرفتُه دوما. هذا كله معقد للغاية، هذه السلاسل، وهذه الفقرات المتداخلة، التي لا نقوى على كسرها. أنا أعرفها منذ زمن بعيد هذه التي تكون ابنتي، اليوم. اتحادُنا قديم، ما يصعب عدُّ مدتِه ما وراء الزمن المعروف. لم تكن دوما ابنتي. كان لها، بالنسبة إليَّ، وجهُ

امرأةٍ مسنَّة للغاية. كانت مهمتي دوما، في كل مرة، أن أنقذها من «كرما» متوحشة وقاسية؛ من مصيبة رهيبة وضاغطة، من إرث من اليأس غير المتناهي. في هذه المرة، كما في غيرها، فشلتُ.. إنها «الكرما».

سيمضي للسجود أمام معبوداته، شيفا - موروكا - كوفيندا، ويحدوني شعور بأنه يتوجه إليها مثل مدٍّ نازل، ثم يتراجع، ويتفرق، فيما يبقى جامدا، ويقوم بهذه الرحلة المكرَّسة التي يقوم بها كلُّ حكيم. يمضي، بعد أن يتخفف من جميع ارتباطاته، من جميع مشاعر الأسر والأمانة؛ يمضي، ويترك وراءه أجزاءَ واقعِه الأخير؛ يترك الأب، والأم، والزوجة، وإخلاص ياشودا، وحروق فاسنتي؛ ويتركنا، حتى نحن، غير المهمِّين في هذا المشهد، لكننا الوحيدون، على الأرجح، الذين شهدوا هزيمته، الأخيرون الذين ألقوا عليه آخر نظرة، وهو حي. قال لي شيام، ووجهه منقلب:

- كيف يمكننا الايمان بإلهٍ يُعاقِب من دون سبب رجلا مثل هذا؟

بدا لي شيام رجلا بعد هذه اللحظة، وبدت الحدة في فمه، فقال بقوة، وباقتدار:

- إن كان هناك أحدٌ قوي، في مكان ما، فإنني سأهبُه جميع التعزيمات المقبلة، من أجل إنقاذ هذا الرجل من دورة الكرما التي له. حتى لو اقتضى الأمر أن أعود، أنا بنفسي، إلى آلاف السنين الماضية، مقابل أن يفوز، هو، بالسلام الذي يستحقه.

خرجنا، نحن الاثنان، وأمسكَ شيام بكتفي، قائلا لي: هذا إعلان إيماني الأخير بهذا الدين. ابتداء من هذه اللحظة، انتهى الأمر. بات الإعصار أكثر شدة، وباتت الشمس بنفسجية، والحرارة المشبعة بالماء راحت تتساقط من الأوراق والغصون، قطرة قطرة من دون أن تنقطع. شيام وأنا، ممسكَين بعضنا بأيدي بعض، توجهنا صوب مذبح «مارديفيرين»، حيث ينتظرنا قرع الطبول، والإيقاعات الجنونية للأصوات، والأجداء المرتعبة، وفاسنتي.

13

كانت السيارة تتسلق ببطء، متكاسلة، شبكةَ الطرق الصاعدة في اتجاه حصون موكا[39] الشاهقة. حاذَينا، في البداية، جبلَ «أوري»، مع منبسطات زراعية متسعة مزروعة بالقصب. كان القصب عاليا للغاية، كما لو أنه جاهز للقطع، وكان يَظهر عليه هذا اللون الزمردي المجيد والنادر، ما يعني اكتمالَ نموه، فيما كانت تويجات القصب الأسمر، في قلب الأوراق، سميكة وغنية بالسُّكَّر، ما يستثير أعدادا من الزنابير والنحل ذات اللون الأصفر والبنفسجي. تمَّ قطعُ القصب من أحد المنبسطات، وتنظيفُه بالتالي، وباتت الأرض حارة، متحولة، لها رائحة حمراء طيبة، رائحةُ خصوبة.

بعد أن التقيتُ بفاطمة، إثر توقفي في الملّاحات، عدتُ إلى البيت متخذة مجموعة من القرارات التي أرغب في إيصالها إلى ديف. لكنه لم يكن في البيت، فذهبتُ وحدي إلى العيادة. كان وِين في غرفة العمليات، بعد أن أجروا له البزل القطني مرة جديدة.

وصل الدكتور مورو، الاختصاصي، من جزيرة «لارينيون»، وطلبَ إعادة الفحوص الضرورية. شرحَ لي أنه وضع علاجا جديدا يأمل منه إحداثَ نجاح طبي: في حالةِ ابنكِ، هناك حظوظُ نجاحٍ تتراوح بين أربعين

(39) قرية في وسط جزيرة موريس (المترجم).

وخمسين بالمئة؛ وهناك مؤشرات تدلُّ على أن حالته تميل إلى الثبات؛ وفي إمكاني القول إنني واثق للغاية. كنتُ أنظر إليه ببرودة؛ ثم حدثَ لي أمر مفاجئ. لم تعد حياة ابني متعلقة بهذا كله؛ حياته باتت متعلقة بالنجوم، بلقاءِ علاماتٍ كونية لا تَظهر إلا بعد ظروف خاصة بالصراع كما بالخصب. لي دَينٌ تجاه وِين، وأبعد منه، تجاه خالي سنجيفا.

غادرتُ العيادة بعد وقت، وقد استبدتْ بي موجة من الحركات المجنونة، غير قادرةٍ على البقاء جامدة طوال فترة طويلة. شعرتُ كما لو أنني مكافحة، فيما كان يتساقط بين أصابعي رملُ حبي، ديف وأنا، ويجعلني باردة بشكل أكيد.

انتهينا في طرق متقابلة. وما بات لازما معرفته، الآن، هو أي اتجاه ستسلكه الطريق الفردية لكل واحد منا.

قررتُ الذهاب للقاء أهلي، إذ كنتُ أبحث عن خيط لوِجهتي، عن تفاسير قديمة، وربما منسية، يتوجب علي التقاطُها مثل حبات ذهب في منخل. البيت الكبير، ذو الأسلوب الكولونيالي، يَظهر في انعطافة الطريق الأخيرة، المنفردُ إلى جانب الهاوية التي تقع في نهاية الطريق. أما النظر المشرق إلى نوافذه العديدة فكان يعكس جوانب عريضة من السماء.

كان الوادي، أمام البيت، ينحدر بنعومة فوق تدرجات الخضرة، المبقَّعة بسطوح من حجر أو من قش السقوف، ويَظهر في البعيد خيطُ طريقِ المرورِ السريعِ الرمادي، والحدودُ الضاجة لـ «كاتر بورن»، و«روز هيل»، مع مستعمَراتها الخرسانية.

لي ذكريات ملتصقة في كل سنتيمتر مربع من هذا البيت. منها، لَمّا تعلق شيام بيدَيه بأعلى غصن في شجرة «المانغا»، من دون أن ينجح في النزول. ومِن ذلك كشكُ الحديقة الذي بَنيتُ فيه، في عمر المراهقة، أحلام الحب، ورؤى التفاهمِ الزوجي التام التي كانت تتبلور في شخص ديف.

ومنها التتخيتة، التي كنا نُقيم فيها، شيام وأنا، خططَ العصيان والتمرد، وننظمُ هربَنا وسط الليل من أجل أن نؤسسَ، في أبعد نقطة من الغابة، مستعمرة من الكائنات المحرَّرة، التي سيكون لها أن تعيش من مزروعات الخضار، من دون أن تحتاج إلى أزواج أو أطفال.

كما حصلت، في البيت، أمراض وأكثر من رعب ليلي، ومشاحنات بركانية، كانت تنتزع منا دموعا وصرخات، وكانت تنتهي في تفاهم عام، معزز بالغفران. وكانت هناك أحزان دائمة، وزواج الابنة، وهروب الولد الذي انتهى إلى استئجار شقة في المدينة، حيث سيكون له أن يعيش حرا مع صديقته من دون أن يتزوجها. بات شيام من الكوادر العليا في شركة خاصة، لكنه لا يزال يعيش مع الصبية «الكريولية» التي يحبُّها منذ سنوات. من دون أن يتغير حبُّه الكريم والصابر لها، حتى حين اكتنزَ جسمُها، وتراكمَ، وبقيتْ من دون إنجاب، عدا أنه رفض التقيدَ بالطقس الذي كان له أن يثبِّت قانونيا حالتهما.

لا أحد يعرف كيف التقى شيام بمرغريت. حين توفي الخال سنجيفا، شيام صار رجلا، بشكل مفاجئ، من دون انتقال. لكنني كنت الوحيدة التي انتبهتْ لذلك، الوحيدة التي عرفت سببَ التحول. كنا متَّحدَين أكثر من أي وقت مضى، مجتمعَين حول سرٍّ ثقيلِ الحِمل. شيام خصوصا شعر بقوة هذا الحِمل، وبعنفه. كان في وجهه، في ذلك الوقت، ندوبٌ وتجاعيد بسيطة، كما لو أنها معالم شيخوخة باكرة. كان يجهد في إخفاء هذا متحدثا عن أمراض اعتيادية، مثل أوجاع الرأس، أو التهاب الجيوب الأنفية، أو الأرق، فيما كانت أمي تتحدث عن أنه يعمل كثيرا، فكانت تعتني به، وتُحيطه بحنانها الشديد. عملُه الدراسي انتهى إلى أن يكون ضعيفا، ثم سيئا. فشلَ في أحد الامتحانات، وتحدثَ الأطباء عن أنه يعاني من انهيار عصبي. في المساء، ما عاد ينام، وكنتُ ألتحق به في سريره من

أجل تقويته والتخفيف عنه، ومن أجل مساعدته على نسيان الأسى الذي ورثَه من خالنا. نسيتُ ارتعابي لكي أحسن مساعدته أفضل. كان ينام أحيانا، ورأسُه فوق كتفي، محاطا بذراعيَ، وكنت أحبُّه بقوة حتى إنني رحت أبكيه بصمت. حين كان يستيقظ، كان يبدو متضايقا، شاعرا ببعض الخجل، وكان يقول لي بأن أعود إلى غرفتي. ثم يقول لي: إن رأتكِ «ما» (أي الأم)، هنا، فستكرهُكِ.

بدا الانفعال بيني وبين شيام غريبا للغاية. أما الاستعادة غير الأكيدة لفقرةٍ من ذاكرتي فما كشفتْ لي ما كان قد قيل، وما قد جرى. كانت هناك أيدٍ متشابكة، وربما الشفاه نفسها، من دون أن أدري حقيقة الأمر تماما. ألهذا أي قيمة؟ كنا كائنا واحدا، في ثنائي، شيئا واحدا، وقد قسمَه القدر إلى اثنَين. اتَّبعنا المسار عينه إلى أن أُكرهنا، بفعل قوة الظروف، على أن ننفصل. هذا ما لم ننسَه أبدا. لا السر، ولا الليالي من دون نوم، ولا الأيدي المتشابكة. حين شرعَ والدي وأمي في البحث عن الحظ الأفضل لابنتهما، وجدَ شيام، في هذه اللحظة، مرغريت، بعد أن راح يبحث من أجل نفسه، ربما لتغطية هذا الفراغ الذي سيشعر به حين أُقدم على الزواج.

لا أعرف من أي ضاحية، من أي قاع، من أي جوف مأساوي أتتْ. إذا كنا مصدومِين كلنا، في البداية، من ظاهرها، من كونها تنحدر من أحطِّ فئة اجتماعية في البلاد. لم تكن، لا من عِرقنا، ولا من ديانتنا، لكنني تيقنتُ، بعد وقت، من أن مرغريت استخرجتْ من أصولها البائسة شيئا جميلا. كانت هادئة بقدر ما كانت النساء المحيطة بها ضاجّة للغاية؛ وكانت عزيزة النفس بقدر ما كان الآخرون فظِّين. كان ظاهرُ جسمِها السمين يتعاكس بسرعة مع عذوبة صوتها ونظرتِها. أما العواصف الشاسعة والمأساوية، التي نتحسب لاندلاعها، والتي كنا نقمعُها بصمتنا، فإنها كانت تتوافق مع الحِمل الداخلي لشيام. هكذا عَمِلَ الاثنان على

التحكم بالمأساة من دون أن يمحواها، ولا أن ينسياها. بلى، كان علينا أن نقرَّ بما هو بديهي؛ لم يجد شيام أبدا، على الرغم من اعتراضات أمه الشديدة، مرغريت أخرى.

لهذا لم يترك شيام مرغريت أبدا، حتى بعد أن أنهى دراسته الثانوية بنجاح متعثر، وبعد أن اشترى له والده، بكيفية ما، وظيفة مهمة في مؤسسة، على أن يكون في عداد كوادرها.

انتهينا إلى أن نعلم أن مرغريت تزوجت، لأول مرة، في السادسة عشرة من عمرها، وأن زوجَها تركَها من دون طلاق. ما كنا نعرف أين هو موجود، وكانت مرغريت تعيش في رعبٍ خفي من أن يَظهر هذا الحيوان السكران من جديد، كما كان عليه، ما جعلَها تفضِّل الاستمرار في متابعة حياتها، كما كانت، بمظاهرها الهشة، في ظل الخلود، ما دام أنها كانت أكيدة من ثبات شيام في موقفه منها. كان شيام، مثل والدي، يحب السكينة، على أي حال. وبما أن المظاهر كانت مأمونة، بفعل التخفي والصمت في محيطنا العائلي، فإن شيام كان قادرا على أن يكون سعيدا.

يخيل إليَّ أحيانا سماع المشاحنات بين أمي وشيام، قبل حدوث القطيعة. كان والدي يختبئ في غرفته، صامتا، مجروحا في قلبه من خيانة ابنه.

كانت أمي تبكي، وتبكي، ليلا ونهارا، فيما يَسكنُها شعور غريب من الضيق، وضغينةٌ واحدة ضد العالم كله. كانت قد شرعتْ في شرب المشروبات الكحولية بشكل خفي، فيما كان يَظهر، في مشاحناتها الكثيرة، أثرُ السُّكر عليها، بأشكال حادة، وفظة، ما أصابنا جميعا بانهيارات عصبية مستمرة. وهذا إلى اليوم الذي توصلنا فيه، والدي وأنا، إلى إقناع شيام باتخاذ قرارٍ مناسب، وباستئجار شقة في المدينة. عاد الهدوء تدريجيا إلى البيت، على الرغم من انفجار الرحيل، الذي وزَّعَ في البيت أنواعا من

الغضب، ومن الحسرة، ومن الأحلام المتكسرة، كما توقفتْ والدتي عن الشرب، ما جلب العزاء الكبير لنا.

كان البيت، الذي حدثَ فيه الكثير من التفجرات، صلبا للغاية. كانت القدّات تتشبث بعدُ وبإحكامٍ بالسطح الجميل، المتوَّج بلاقطِ الصواعق الأبيض، وكانت الشرفة المزجَّجة فوق الدرج المقصَّب للمدخل تعرض للناظر عارضات خشبية سميكة ومدعوكة من الزمن. كان رأسٌ من الأيِّل المعروف في الغابات الكبيرة، وذي النظرة الذابلة، يتدلى بعدُ فوق حائط الشرفة، ويكتسب أكثر فأكثر هيئةَ رئيسِ سربٍ ساقطٍ، بائسٍ وحزين. أما الصالة الكبيرة ذات السقف الأبيض، المزيَّنة بالزخارف الجصية، فكان يُزيِّنها نسيجٌ فني قديم مرسوم باليد، وكان لا يزال يحتفظ بالتخطيطات السيئة التي كنا نقوم بها، شيام وأنا، فوقه طلبا للمنافسة الفنية.

اليوم، حين أعود إلى البيت، أرى بشكل أقوى التداعي الذي يتحكم به، الذي يفسد التصوير، وينقر ثقوبا في الأرضية الخشبية المعتمة، وينشر غيوما من عفونة على جوانب السقوف البيضاء. حين يهطل المطر، يتسرب الماء في الداخل، من خلال القدّات، فيما كانت السطول المليئة بالماء، هنا وهناك، تشهد على الانهمار الثابت عبر السطوح. تشيخ البيوت بنعومة، مثل الوالدين، فلا تفقد شيئا من جمالها الخارجي، ولكنها تتراجع من الداخل. هذا البيت إنسانيٌّ للغاية، حارٌّ، أليفٌ، وأشعرُ بأنه يرتجف حين أضع يديَّ عليه، شاعرا بالأسى الملازِم للأشياء المنتهية، فإذا بي أنتعش، ولكن مثل ورود الشتاء في أرض متروكة، وقد انتهت إلى حِملان جميع ثمارها.

مضيتُ لتقبيلهما في غرفتهما، وجدتُهما صامتَين، جالسَين، وفق قعدة الصباح المريحة، فترى أمي تحوك، وأبي يطالع الجريدة. بدتْ عليهما السعادة لرؤيتي، ثم أعادتْهما ذكرى شيام إلى عتمتهما.

تنظر أمي إليَّ، مخمِّنة حالي، ما دام أنها تُحسن التفريق، بغريزتها المتمرنة، بين عينَين محمرّتَين من الزكام أم من الدموع، بين ثنية في الشفتَين دالةٍ على القلق وثنية من الألم، بين ضحكة الفرح وضحكة التعاسة، وهو ما جعلَها تعرف ما أريد محادثتَها عنه.

أنطلقُ في كلامي من دون تفكير، من أجل ألا أتعثر في الطريق، من أجل ألا أُظهر لها، لا خوفي، ولا شكي. يجب أن أقطع جميع الجسور، من أجل ألا أسترسل في مناقشة، فأنتهي إلى إضاعة كل شيء، وإلى كسر انطلاقتي التي خططتُ لها.

- يا أمي، سأقوم بتضحية من أجل وِين.

صمت. عقدة في الحاجبَين. شيءٌ مزمجِرٌ يستيقظ في نظرة أمي الغامقة. أبي ينظر إليَّ، ويهزُّ رأسه بشكل خفيف. لكنها ما لبثت أن وقفت، وقد تملكتْها ردة الفعل العصبية التي تستبدُّ بها منذ موت فاسنتي، والاهتزازُ الهستيري الذي لم يفارقها منذ رحيل شيام عن البيت.

- تضحية؟ أي تضحية؟

- لم يعد في مقدوري الاستعانة بأي حل آخر. عليَّ أن أسعى. هناك أسرار، هناك خفايا، يتوجب عليَّ انتزاعُها من مخابئها. أريد أن أسعى إلى كسر حلقة في هذه السلسلة، التي تجعل منا مساجين. ولهذا..

شعرتُ بأنني كنتُ كمن يعتذر، كمن يُبرِّئ نفسه، بشكل من الأشكال، من دون أن يقوى على ذلك. أجدني، أمام أمي، أعتذر دوما عن ارتكابي لشيء ما.

- ماذا تريدين أن تفعلي؟

أعتقدُ أنني.. أنني سأمشي فوق النار. تصرخُ صرخة قوية، قصيرة، كسيحة. أبي، هو أيضا، يرزح تحت هولِ ما سَمع. للنار، بالنسبة إليهم، اسمٌ وحيد، وتُوحي بشيء وحيد: فاسنتي. عائلتُنا، بمجموعها، عرفت الصدمة

الكبيرة الناتجة عن النار. أصاب الحكاكُ ياشودا في يدَيها: لديها رغبة في قلع شَعرها، أو في صَفْعي، أو أن تقوم بحركة، بحركة واحدة تُحررُها من حمولة الانفعال، الذي تساقطَ عليها بضربةٍ واحدة، مثل فائض من الدم في الرأس. وقفَ أبي، ثم مضى ليختفي في أرجاء البيت الكبير. إنه يرفض المشاركة في هذا. إنه يعود بثبات إلى هامشيته؛ لعله يستغرق، في هذه اللحظة، في دفتره الصغير حيث للكلمات أن تحررَه، هذه الكلمات التي ستتصاعد دخانا وتمضي معه، هذه الكلمات التي لا تملك معنى لها إلا له. أدارَ لي والدي ظهرَه، على أي حال، مثلما فعلَ مع شيام حين قال له، في نهاية المطاف: امضِ، امضِ، واذهبْ للسكن معها حيثما تشاء، ولكن توقفْ عن تمزيق هذا البيت. أريد أن يعود السلم إلى هنا.

الآن، ياشودا وأنا، أصبحنا وجها لوجه، ويدور العالم حول هاتَين المرأتَين المتشابهتَين، الضعيفتَين والشرستَين، المستعدتَين للصراخ كما للبكاء، القابلتين للكسر مثل تويجات يابسة مع أنها قابلة لعيش مزيد. إنها تضطرب حاليًا، تقوم بحركات مفتعلة، وتروح تمشي على غير هدى. بات، الآن، شَعرها منكوشا، ما يعطيها شكل المنهارة عصبيا.

- ما هذا، ما تعني هذه، التضحية؟ أأنتِ مسؤولة عن مرض ابنك؟ أعليكِ أن تُكفِّري عنه؟ أقرأتِ في مكان ما، في كتاب مقدس، أن عليكِ أن تموتي لكي يفوز بحياته في المقابل؟ ما الضمانة بأنكِ ستنجحين في مسعاكِ، وأنه سيكون هناك أحد، في مكان ما، يستمع إليكِ ويستجيب لطلبكِ؟ قولي لي، أجيبِيني!

- يا أمي، أنا لا أعرف. ليست لي أي قناعة أكيدة. هذه القناعة ليست قائمة في أي مكان. أنا ما قرأتُ عن هذا في أي كتاب، ولا ضمانةَ لي البتة. إلا أن هذا لا يسري على حياة ابني. أنا مستعدة للقيام بأي شيء من أجله. عليَّ أن أسعى، وإلا فإنني سأكون مسؤولة بالطبع، مسؤولة عن

عدم قيامي بأي عمل. مسؤولة عن بقائي بيدَين معطلتَين، من دون أن أسعى حتى للعوم من أجل إنقاذنا، هو وأنا، من السفينة الغريقة.

- أتعرفين أنني كبرتُ مع قناعات أقوى من قناعاتك؟ أتعرفين، أنني، في السادسة من عمري، جرى شكّي بإبرٍ فضية بسبب ما يقتضيه عيد كافادي[40] من طقوس خاصة؟ أتعرفين أن سنجيفا تحمَّلَ جميع أعمال الموت الممكنة والمتخيَّلة؟ كان أبي الإنسانَ الأكثر تشددا، والمتشبعَ بشكل عنيف بمعتقدات ما عرفتُها أبدا. آمنتُ بهذا كله، حبا به. لقد أمضيتُ أكثر من أربعين سنة في التخلص من فكرة الفساد التي زرعَها في رأسي. بدأتُ التفكير، عند بلوغي الأربعين، بوصفي كائنا مستقلا، وفهمتُ أيضا أن سنجيفا لم يكن مسؤولا عن موتِه، وأن غالب شعورنا بالذنب لا أساس له. ولكن، أثناء ذلك، كان الضرر قد حصل. هذه الطفلة المسكينة البريئة، أرأيتِ ما فعل التطرف بها؟ أنجالي، أنسيتِ فاسنتي؟ أنسيتِ أنها ماتت حرقا، وأنكِ شاهدتِ موتها؟ بعد ذلك، كم عملتُ على حمايتكما، أنت وشيام.. بعد ذلك، توقفنا تماما عن متابعة الطقوس، وعن حضور الاحتفالات، وحتى عن الصيام، لأنني ما كنتُ أريد أن تعيشا من جديد هذا الكابوس. شيام، حتى اليوم، يضطرب عند سماع قرع الطبول. هذا كله، كل هذا، من أجل فرض الأمور، من أجل الابتزاز. أتظنين أنني سأدعهم يُديرون الأمور؟ لكِ أن تنتظري، سأتحدث معهم، سترين ما سأقوم به، سأقول لهم ما يدور في رأسي، سأقوم..

الصرخة، التي كتمتْها طويلا، خرجتْ. دموع ثخينة، خارجة بصعوبة، تبللُ وجهَها. تنهمرُ دموعُها ببطء، ثم تفور بقوة غريبة.

أنتظرُ بصبرٍ وخضوعٍ لمّا تصبح قادرة على سماعي. كانت تتأوه، منكسرة، مدمّاة. وردَ في خاطري أنني أتكلم مع محتضِرة.

(40) عيد هندوسي، في الأرخبيل الهندي، يجري فيه شكُّ مناطق في الجسم بإبر من أجل تنقيته (المترجم).

- لا أحد يُكرهني على فعل أي شيء. أرجوكِ، اسمعيني، صدِّقِيني. لم يطالبوني بعدُ بأي شيء، قطعيًا. أنا اتخذتُ هذا القرار. إنه قراري الخاص. لا، ما نسيتُ فاسنتي. أنا، من أجلها، أقوم بهذا، بمعنى من المعاني. من أجلها، كما من أجل وِين. علينا، نحن كلنا، أن نشتري حياة هذَين البريئَين.

تهزُّ رأسها، وقد باتت أقرب إلى طفلة، إلى بهيمة.

- لا، أبدا، إنها غلطتي، أنا التي لم أفهم الأمور في وقت باكر. إنه ثمن الحقد الذي شعرتُ به إزاء فاسنتي، لقد حصلَ هذا كله من أجل معاقبتي، وها أنتِ، اليوم، تريدين أن تحترقي. سيكون هذا بسبب ما فعلتُ، أنا أعرف، أعرف لماذا يحدث هذا كله لي. لماذا؟ لأنني أحببتُ والدي، الذي لم يكن سوى شيطان، وقد جعلنا كلنا تعيسين. حتى شيام، شيامي أنا، تركَني، هجرَني. وأنتِ بدورك تركتِني، أبقيتِني وحيدة، وبات والدك صامتا أكثر فأكثر. هذا البيت أقرب إلى قبر، قريبا سأصبح ميتة حية، مدفونة حية، ومَن سيزورني حينها، هنا، غير ذكرياتي كلها، وجميع أشباحي؟

تفتلُ يدَيها، متجمعة على جسدها، ماضية أكثر فأكثر في عالم كابوسي. هي وحيدة حقا، وليس في وسعي مساعدتُها، على الرغم من أنني شعرتُ، فجأة، بأنني قادرة على ذلك، لكوني قوية في ضعفي. كأن أحيطها بساعدي، وأهدهدها مثلما فعلتُ لشيام، كأن أشدَّ من عزيمتها. فأنا لن أتخلى عنك. سأكون هنا، أيضا، دوما، حينما تحتاجين إلي.

لكن، أنا أيضا، لي ألمٌ من أمي. وليس لي سوى رغبة غير أكيدة بإيقاف ألمِ ياشودا. يخيل لي أن مساراتنا افترقتْ، وأنها ستَقبل، بصعوبةٍ، الراحة التي سأوفِّرها لها. هناك وحوش حيث نكون وحيدين إزاء مهاوينا. والدي يصارع مهاويه، منغلقا على نفسه، في أي غرفة معتمة، فيما تنهمر الدموع وصرخات الرجلِ التي فيه، أو ينصرف إلى التأمل المعتدل

واليائس في رؤية حميمية متجمِّعة في نظرته الناعمة والسلبية. أما أمي فتُصارع بدورها، ولكن مثل مخلوق شرس، بمخالبها وأسنانها، من دون أن تُدرك أنها تصارع في هذه اللحظة ضد نفسها.

كان لا يزال صوتها يبلغني، ببطء، بتناقص، مثل غناء الظل.

- لقد رأينا حرق الجسد، ولكن مَن رأى النار في والدي قبل موته؟ من رأى نظرته الهلعة من جراء هذه المخاوف التي تتهدده كلها؟ من رأى تبكيتَ ضميره؟ سنجيفا لم يفهم أن والدي كان يعاقب نفسه من خلال ابنه، وأنه كان يحبُّه أكثر مني، أكثر من إخوته في السفينة، ولكنه كان يعاقب نفسه إذ يرفض هذا الحب؛ إنه العقاب الذي احتفظَ به لنفسه بسبب تخلِّيه عن الماضي. بلى، لقد كان وحشا، كان شيطانا، كانت له هواجس مَرَضية غير مفهومة. لكنه كان أيضا إنسانيا من دون أن يكون مفهوما أبدا. كانوا معجبِين به بسبب قيمٍ خاطئة، فيما بقيت قيمُه الحقيقية مجهولة. كان سنجيفا أكثر قوة منه، على الرغم من عذوبته ودموعه. أحببتُ والدي بسبب ضعفه. لماذا أُنكر هذا؟ ما زلت أحبُّه. لديَّ شعور بأن سنجيفا انتصرَ عليه. لأنه، هو أيضا، توفي بفعل النار، هذه النار غير المرئية والداخلية التي في الأسى، في الحنين إلى الأرض الضائعة، نار «كالا باني»، المياه السوداء التي أُكرهوا على عبورها، والتي محتْ وراءها جميع الآثار، وقطعوا معها جميع الارتباطات، وأغرقوا ذاكراتهم بطريقة نهائية، بحيث أصبح المنفى وطنَهم، لا هذه الأرض، لا هذه الجزيرة، لا، هذا المنفى. مَن يَفهم هذا، الآن، وقد بلغنا الجيل الثالث أو الرابع المتحدِّر منهم؟ مَن يفهم هذا الوجود المعلَّق، وغيابَ الانتماء هذا؟ أنا عرفتُه، عشتُه معه، أحببتُه مثلما تُحسن الفتيات الوحيدات الحبَّ. غير أنني لمّا رفضتُه، في وقت لاحق، خنتُ ذاكرتي، وأرسلتُه، ميتا، إلى هذا المنفى، الذي ما كان له أن يتركه أثناء حياته. ذلك أن والدا ميتا، غير

محترَمٍ من الأحياء، لن يعرف الراحة أبدا. إنني أراهم، إنهم مجتمعون، جماعة «جاهاجي بهاي»، كلُّهم موحَّدون في تيهِهم، ولا أحدَ منهم يعرف الوجهة التي على سفينتهم المعطوبة أن تتوجه إليها. عليَّ مساعدتهم، أنا، نعم. هذا يعني، مساعدتي لهم.

تقفُ ببطء، مخلَّعة الوركَين، وأصغر حجما. امرأة أخرى استفاقت فيها. لا، لم تكن امرأة هذه: كانت ابنة أبيها. رفعتْ يدها في إشارة وداع غير مؤكدة.

- هيا، امضي، أنجالي. عليَّ أن أستعيد ذاكرة والدي. إنه هدفي الوحيد، حاليّا، وقوتي الوحيدة. ارتكبتُ خطأ، إذ عشتُ من أجل أولادي فقط. إن حبي لوالدي الميت أكثر عمقا من حبي لولديَّ الحيَّين.

انثنيتُ تحت هذه العقوبة، التي كانت صادمة بمقدار ما كانت غير واعية. أعرف أنها كانت تعوم في كونٍ باطني، في عالم من المفارقات، الذي لا يعدو حتى الحب فيه أن يكون انفعالا غير محدد، وأن الشعور الأمومي أو الأبوي غير أكيد فيه. لها أن تصارع من أجل الهِبات الأكثر بؤسا، ومن أجل حسنةِ القلوب المنحلة. أنا متعجلة للرحيل، لكنني، في الوقت نفسه، أتردد. ذلك أن الصمت، الذي سيحلُّ الآن فوق هذا البيت، سيكون أشد، أكثر سماكة، ونهائيا أكثر من السابق. لن يكون هناك جسر الابتسامات أو الذكريات المشتركة، ولا كلمة، أو دندنة، أو صفير. الآن، شاغلا البيت سينجرفان أكثر في ماضيهما، كما في آلة لاستعادة الوقت، فيضيعان فيه، ولا يجدان الطريق الضيق الذي سلكاه معا، وحيث كان في إمكانهما، بين وقت وآخر، أن يمدا اليد لليد من أجل البناء والاجتماع من جديد. فكلُّ واحد منهما مضى للالتحاق بغرفته المعتمة في البيت الكبير الذي للصمت.

14

حين دخلتُ إلى البيت، في وقت متأخر من الليل، شاهدتُ، مباشرة، السيارات. هناك سيارتا أجرة، سواقون ضَجِرون، متهالكون في مقاعدهم. إنهم ينتظرون منذ وقت بعيد.

أعرفُ أنهم هنا. أنتظرُ هذا منذ عدة أيام. لكن هذا لم يمنعني، مع ذلك، من أن ينتابني نوع من الخوف المَرَضي. كل هؤلاء الناس الذين ما أتوا إلى هنا إلا من أجلي، الذين ينتظرونني كامنين، مثل عصافير الطرائد. سأكون ضحية مُذْعِنة. سأتوجهُ صوبهم من دون صراخ، لن يكون لهم غير أن يغلقوا عليَّ مخالبهم. لن يكون هناك أي جلبة، أي صراع، أي إراقة دماء. أأخضع تماما بمجرد كسر عظم صغير فيَّ؟

لم ألتحق بهم مباشرة.

ما عادوا في وضعية من يَطلب الكلام كثيرا، في الوقت الحالي. اتجهتُ صوب أرجوحة وِين للجلوس عليها. تَصدرُ عنها أصواتٌ حزينة متأتية من السلاسل الصدئة. لي رغبة قوية في الحديقة، وفي وجهه الطري، وفي الروائح الخضراء المنبعثة من البابونج والنعناع، والتي تتزايد من تلقاء نفسها. وجودُ وِين، هنا، قوي؛ جلده الطفولي الأملس، صوتُ حنجرته، ذكراه التي تتنقل في الزوايا والخفايا، متعرفة إلى مخابئه المحبَّبة، وستائره التي من طحالب، وأعشاش الزنابير المهجورة من قبل شاغليها الخطرين.

شعرتُ في نفسي أنني بتُّ أكثر قوة لكي أواجه من كانوا ينتظرونني في الصالون. تلقيتُ، عند دخولي، بضربة واحدة، إحساسا شديدا بالعداء، المختبئ خلف الابتسامات المتجهِّمة، بما يناسب المقام. اصطدمتُ بجدار من الوجوه المعتمة، من دون أي دماثة، مقودِين بلزوم الواجب. ديف، هو أيضا، كان، في الوقت الحالي، في الجهة غير المناسبة.

«بوساري»[41] شابٌ من «التامول»، محلوق الرأس، يسود عليهم، مع ابتسامته التي تكشف عن أسنانه المسوَّسة. حافي القدمين، جالسٌ القرفصاء فوق مقعد، وكوبٌ من الحليب بيده. ينزاح قسمٌ من لباسه القطني الأبيض، فتبدو سمرة رجله. هذا ما جعلني أبتسم. ابتسامات هنا وهناك، إذ راحت تسترخي أعصابهم بعد طول انتظار مقلِق ومدعاة للتشنج. إنهم يعرفون أنهم في بيتي، في أرضي. يقفز ديف صوبي:

- أين كنتِ منذ الصباح؟

- كنتُ عند فاطمة، معها، في بور-لويس. ثم انتقلتُ إلى أهلي.

- وماذا عن وِين؟ هل فكرتِ فيه؟

- مررتُ بالعيادة، والتقيتُ بالدكتور مورو.

- ألم يخطر في بالكِ إعلامي بمكان وجودك..

كنتُ أنظر إليه من دون أن أجيبه، متساءلة بيني وبين نفسي عن خوفي، لوقت طويل، من هذا الرجل الذي يغضب لأي سبب. كان محاطا بكثير من العطف العائلي، لكن طلتَه تبدو سخيفة ومصطنعة. لا أجد أي مبرر لسؤاله: وأنتَ، أين كنتَ؟ هذا يبدو، في ناظري، غير مجدٍ وبائس، وليس في مرادي التباهي بهذه الانتصارات الوضيعة.

والدة ديف وضعت يدا على كتف ديف.

- ديف، دعْك من هذا، كانت تحتاج إلى سند، ذهبتْ إلى أمها، هذا

(41) الاسم المناسب، في لغة «الكريول»، لتسمية الكاهن الشعبي (المترجم).

طبيعي. كان عليك أن تتصل بها هناك.

ثم دارت صوبي.

- تعالي، يا أنجالي، اجلسي، لنا ما نقوله بيننا.

استعاد الواحد بعد الآخر ابتساماتهم، متشجعِين بما آلت إليه الأمور. هذه الابتسامات المصطنَعة التي كانوا يخصّونني بها دوما. ذلك أنني لم أكن أبدا منهم، حتى يوم الزواج. كانوا ينتبهون لأي حركة أقوم بها، لكنني كنت الأجنبية؛ حاليا، أنا المندسَّة بينهم.

عشتُ إلى جانبهم، دوما على الهامش، من دون أن أكون، لا صديقة، ولا عدوة، مشترِكة أحيانا في حياتهم الضاجة من دون أن أشاركهم أبدا قرابة شديدة في التفكير، التي كانت موجودة بينهم، ولا سيما في الأعياد.

النساء ينهمكن حول الأوعية القصديرية الضخمة التي ينضج الأرز فيها، ويغلي «الكاري» ناشرا رائحته القوية والنفاذة، هو الذي تشمَّس مثل التوابل التي وضعنها للتجفيف في لظى بور-لويس الأبيض قبل أن يطحنوها؛ القدورُ المطلية بالمينا التي ينقعن فيها بنعومةٍ الحليبَ الرائب ذا الرغوة الشقراء؛ الرجال المهتاجون من شرب «الروم» الذي ينتزع من حناجرهم ضحكاتهم، وشتائمَ غليظة، ومداعباتِ لهوٍ لا تتوقف، إلا حين يتضايقون مثل أطفال بعد ضبطهم إثر اقتراف أخطاء، وعندما أحضرُ بينهم.

لا لحظةَ توقفٍ في هذه الحياة، التي هنا. حتى في الأيام الاعتيادية، يكون علينا أن نعمل بالفرشاة، أن ننظف، أن نجلي، أن ننزع الغبار؛ علينا أن نتقاسم لذةَ أكلِ هذه الأطباق التقليدية، التي يكون إعدادُها الدقيقُ والصبورُ علامةَ شرف، ثم البدء من جديد بغسل أدوات الأكل، والصحون، ثم البيت نفسه، بشيء من الهوس في النظافة.

أن نتقيد بأعمال اعتيادية، وأحيانا بائسة، ما يصبح طقسا، عبودية

يومية، من دون أن يَشعر بها أحدٌ كذلك، لأنها تشدُّ العلاقات، وتُعطي معنى لحياة الروتين هذه، وتُقيم النظام وتضبطه، تحت سطوة السوط غير المنظور. هذا لا يعطي وقتا بالتالي للتفكير في غير شيء، ولا الأمل بحرية ما.

أشعرُ تجاههم بنوع من العاطفة غير الدقيقة، الغائمة، التي تغتذي من تضامنات ظرْفية، ثم تختفي، بل تتحول أحيانا إلى شعور حاد بالاختلاف. اختلافٌ، سدٌّ، وسوءُ تفاهم غريب، ما ينشأ من القربى، من الأمانات الزمنية، غير القابلة للمراقبة. اختلافات، تشابهات، والقسمات ذاتها التي للشرقيين، الاعتيادات ذاتها في الزي، والأفكار، والعقليات المتباعدة فيما بينهم تباعدَ القطب عن القطب.

مع ذلك، فهُمُ من اخترتُ الذهاب إليهم، في هذه اللحظة الدقيقة. صوب حماتي، التي -لاضطراب نظرتها إليّ- اقتربتْ مني، بل باتت تلتصق بي. صوب الأهل، المحدَّدين وغير المحدَّدين، الذين يأسرونني بقناعاتهم غير القابلة للتفسير. صوب «هذا البوساري» الفرِح والمسوَّس الأسنان، الذي يشملنا كلنا بعنايته، من رجال، ونساء، وأطفال، وكلاب وقطط. وصوب ديف، المقطَّب الحاجبَين، لأنه لا يعلم ما سأقوله بعد وقت قليل.

والدة ديف تتبادلُ نظرة مع الكاهن، فيتنحنح هذا، ويشرع في التحدث بلغة «كريولية» ذات تحويرات غريبة:

- يا عزيزتي، ابنكِ في خطر. علينا أن نؤمن بالله، وبرحمته. أن نعيش الحياة من دون الإيمان بالله، فهذا كما لو أننا نحرم أنفسنا الغذاء. كما لو أننا نُكره أنفسنا على الصيام في باقي حياتنا. إذا كانت لدينا مشكلة، فالله يحلّها؛ إن احتجنا لشيء، فإن الله هنا، يعطينا إياه. وأخذ يرددها بلغة الكريول.

يهرب فكري مني سريعا. هذه الكلمات لا أريد الاستماع إليها قط.

أرغب في أن أمسح عن وجهه هذه الابتسامة المتظاهِرة بالتقوى، وهيئةَ القداسة المتأكِد منها. ولكن، بما أنه يحادثني مثل طفل، أهزُّ رأسي مثل طفل، فاغرة فمي أمام عِلمه الكبير..

- ها أنتِ ترَين، يتابعُ كلامه، في إمكانكِ أن تطلبي من الله أن يمنح الحياة لابنك. إنه لمن واجبكِ، بالمقابل، أن تمنحي شيئا من نفسك، من أجل أن تستحقي هذه الهبة اللامتناهية، هذه الهبة الإلهية.

صمتٌ ثقيل، يُطلقُ مشاعرَ مختلَطة، شديدة للغاية.

- هل يكفل لي هذا شفاءَه؟ أقول بشيء من العنف.

يهزّ الرأس، وقد عكّرتُ كلامَه. اهتزازات من جراء هذا الفعل الشائن. إن سؤالا مماثلا يطنُّ، كما قبل وقتٍ قليل، في فمِ أمي، بالتحدي الضمني الذي فيه، بالشكِّ الكامن فيه، ما جعلَ الكاهن يفتح منخارَيه القويَين بفعلِ غضبٍ ممسوك.

- ليس في إمكاننا أن نطلب ضمانات من الله، أنتِ تعرفين هذا جيدا. له وحده الحق في قبول تضحيتك أم لا.

كان هذا على سبيل الخطب الرنانة. أغطُّ في التفكير، فيما كان الجواب جاهزا قبل أن يتمَّ توجيه السؤال إليَّ. لعلهم كانوا ينتظرون رفضا من قبلي. لأنهم بدوا مصدومين، مضطربين للغاية، حين قلتُ:

- أنا مستعدة. ماذا تنتظرون مني؟

صمتٌ من جديد، مليءٌ بالتململات، بالأفكار التي نكاد نسمعها، في حالة من التداعي.

والدة ديف قامت بأول حركة. لمستْ ساعدي بشيء من الاحترام، وقالت بوضوح:

- نريد أن تمشي فوق النار.

يتجمَّعون كلهم حوالي، كما لو أنهم يَبنون سدّا يحميني من نفسي.

يدٌ رطبة أمسكتْ بيدي، وأحد الأفواه التقى بخدي. أصوات تحيط بي: سترَين، إنها عملية بسيطة، لن تتألمي قط، عليك أن تتركي نفسك، أن يحملك إيمانك، أن يغزوك.. سنكون هنا، سنساعدك، لن تشعري أبدا بأنك وحيدة، هذا وعد. كل شيء سيمضي بخير، حتى بالنسبة إلى وِين، سترَين، سترَين.

كان فرحُهم بالغا لدرجة أنني ابتسمتُ بدوري من قوة المفاجأة. لدي شعور بأنهم سينتهون بمدِّ الأيدي بعضهم لبعض، وتدوير الحلقة حولي. يلتقي نظري بديف فوق الرؤوس الصغيرة اللامعة بزيت جوزة الهند، وفيه الانتشاءُ نفسه؛ يهمس لي: شكرا، فيما يحدوني شعور بأنني قدمتُ له هدية كبيرة.

كنتُ أنظر إليهم، في لمعان ضحكهم عند إعلان النبأ الذي زرع، قبل ساعة من الآن، اليأس في بيت أهلي. ما عدت أفهم معنى الأشياء.



آناندا ديفي

Ananda Devi

- من مواليد العام 1957.
- يعود أسلافها إلى الهند، وجرى استقدامهم من قبل الإنجليز للعمل في جزيرة موريس، حيث ولدت، وعايشت بلوغ الجزيرة استقلالها، وهي في الحادية عشرة من عمرها.
- شرعت في الكتابة منذ سن مبكرة، بالفرنسية، منفتحة ومغتذية من مصادر مختلفة، مثل: اللغة الخليطة المعروفة بـ «الكريول»، والموسيقى الهندية، ولغة «التيلوكو» المعروفة في جنوب الهند (والتي أخذتها عن أمها).
- انتقلت إلى لندن في الدراسات العالية، حيث حصلت على شهادة الدكتوراه في علم الأناسة (أنثروبولوجيا).
- نشرت ديفي عملها الأدبي الأول وهي في التاسعة عشرة من عمرها، ثم نشرت الأعمال التالية: «وزن الكائنات» (1987)، و«شارع مخزن البارود» (1988)، و«غطاء دروبادي» (1993)، و«نهاية الأحجار والأعمار» (1993)، و«الشجرة-السوط» (1996)، و«أنا، الممنوعة» (2000)، و«طُرق الرغبة المديدة» (2001)، و«باغلي» (2001)، و«الرغبة المديدة» (2003)، و«حياة حوزفِن المجنون» (2003)، و«تانغو هندي» (2007)، و«الساري الأخضر» (2009)، و«الرجال الذين يحادثونني» (2011) وغيرها.



غطاء دروبادي

هل تُنقذ الأم أنجالي طفلها بأن تحرق جسدها وفق طقس هندوسي قديم؟

هذا هو الامتحان القاسي الذي تتعرض له راوية الرواية، وشخصيتها الأساسية، وتنبني الرواية من منطلقها حتى خاتمتها، على استعادة طقوس تقليدية، متَّبَعة في جزيرة موريس في المحيط الهندي.

هي رواية الأم المعذبة، في بيتها، مع زوجها، في عائلتها الكبيرة، من دون أن تجد منفذ خلاص لها. رواية الشخصية التي يتمُّ التضحية بها، والاستهانة بحياتها، في مجتمع جعلَ من معتقدات بالية (الاحتراق بالنار لإنقاذ الغير) قيمة مطلقة، طاعة لازمة، تفوق وتتخطى الرغبة في العيش، في مواجهة مصاعب الحياة وآلامها في الحياة نفسها.

الرواية تروي عذابات المرأة في مجتمع تقليدي: لكونها زوجة، وأمًا، لكونها مسبوقة بأدوارها الاجتماعية، من دون أن تقوى على التصرف بحياتها.

الرواية «قدرية» بهذا المعنى، وهو المغزى المستقى من التقاليد الهندوسية، مِمّا يسمى «الكَرْما»: البشر يعيشون في دورة، فيتقمصون ويتناسخون في كائنات غيرهم، وفي ظروف زمنية متغيرة. وهي قدرية، أو «كرما» بالأحرى، تتكفل بها جماعات فاعلة في المجتمع، وتنظمها طقوس متناقَلة ومجرَّبة، ويحرسها كهنة مندوبون لمتابعة عمل الدورة.

ولكن، هل ستُقْدِم أنجالي على المشي فوق النار، فوق «غطاء دروبادي»، على التضحية، وفق التقاليد، من أجل «شراء» مصير جديد لوليدها الوحيد؟

سينتقل القارئ العربي، في هذه الرواية، إلى مناخات وأوضاع بعيدة عنه، وإن كانت متماسّة معه، في البلاد الشرقية التي تقاطعَ تاريخُها وجماعاتها مع أوضاع وسياقات إسلامية (قديمة) وعربية (حالية)، إلا أن القارئ سيتحقق من أنه ليس بعيدا، بل هو قريب من بعض المناخات، ولا سيما في الحديث عن متانة البنى التقليدية في تسيير مصير الأفراد والجماعات أحيانا.



ISBN: 978-99906-0-619-5

رابط بيع الإصدارات على الموقع الإلكتروني

https://www.nccal.gov.kw/publications